بدر شاكر السيّاب

ثورة الشعر ومرارة الموت

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

بدر شاكر السيّاب

ثورة الشعر ومرارة الموت

إعداد ودراسة: هاني الخيِّر

أعلام الشعر العربي /بدر شاكر السياب/

ثورة الشعر ومرارة الموت

إعداد ودراسة: هاني الخيّر

سنة الطباعة: ٢٠١٠.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الترقيم الدولي: 0 - 36 – 410 – 9933 - 987

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

ومهما يكن فإن كوني، أنا ونازك الملائكة أو علي أحمد باكثير أول من كتب الشعر أو آخر من كتبه ليس بالأمر المهم. وإنَّما الأمر المهم هو أن يكتب الشاعر فيجيد فيما كتبه، ولن يشفع له ـ إنْ لم يجد ـ أنَّه كان أول من كتبَ على هذا الوزن، أو تلك القافية.

بدر شاكر السيّاب

إضاءة

بدر شاكر السيّاب... محطات حياتية

ـ ولد بدر شاكر السيّاب في جيكور بالقرب من أبي الخصيب في جنوب العراق عام ١٩٢٦. والده شاكر بن عبد الجبار بن مرزوق السيّاب ووالدته كريمة ابنة عم والده.

ـ كان والده يعمل في حراثة النخيل ويحيا حياة الكفاف في منزل أجداده على طرف جيكور بمكان يعرف ببقيع.

ـ عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٠ وضعت والدته ولدين آخَرين: عبد الله ومصطفى ووضعت بنتاً عام ١٩٣٢ وما لبثت أن توفيت والدته إثر الوضع.

ـ كان بدر ينفق أيامه في منزل جده أو في منزل جدته لأمه، حيث يلهو مع أترابه في نهر بويب وفي جنائن النخيل ويصغي عند المساء إلى الأقاصيص والأساطير الشعبية كفتوح الشام وسيرة عنترة وعمر الزمان والسندباد وأبي زيد الهلالي وحزام وعفراء وعن نابليون الثالث والعرب في إيران.

ـ عام ١٩٣٢ استقل العراق وفي العام ذاته أُرْسِلَ بدر إلى المدرسة في قرية «باب سليمان» الواقعة إلى غرب قريته جيكور وفيها أربعة صفوف ابتدائية.

ـ عام ١٩٣٦ انتقل إلى المدرسة المحمودية الابتدائية للبنين في أبي الخصيب، وكانت ذات ستة صفوف ابتدائية، بناؤها من طبقتين وفيها غرفة ذات شناشيل أي ذات زجاج ملون بالأزرق والأحمر القاني والأخضر والبرتقالي ومزينة بالخشب المحفور بالزخرف العربي وسقفها مطلي بالجِبس وله تصاميم أزهار منمنمة وزخارف هندسية وقد انطبعت صورتها في ذهنه واستعادها بشعره في آخر حياته.

ـ عام ١٩٣٥ تزوج والده ثانية وانفصل عن عائلته الأولى التي أُبْقِيَتْ في عهدة الجد وانتقل إلى العيش في قرية عامية حيث رزق من زواجه الثاني ابناً دعاه خالداً وابنتين دعاهما نجاة وحياة.

ـ عام ١٩٣٨ الحق بدر بمدرسة البصرة الثانوية وعاش مع جدته لأمه في قطاع من المدينة يدعى العشار.

ـ ابتدأ ينظم الشعر منذ المرحلة الابتدائية، لكنه ازداد شغفاً به في المرحلة الثانوية ونظم قصائد وصفية وغزلية.

ـ اعجب بوفيقة ابنة صالح السيّاب ابن عم جده وكانت صبية جميلة وقد خاب أمله بزواجها ونظم في ذلك شعراً رثى به عاطفته وظلت هذه الصبية تصحب خاطره طوال عمره وقد فجع بموتها بعد نحو عشر سنين. « له فيها قصيدة على الشاطئ ١٩٤١».

ـ ساعد جده في جيكور برعاية قطيع من الأغنام حيث عرف راعية تدعى «هالة»، وقد شغف بها ونظم فيها شعراً رقيقاً.

ـ عام ١٩٤١ قام رشيد عالي الكيلاني بانقلاب في العراق انتهى بسقوطه وشنق بعض مؤيديه. وقد نظم بدر قصيدة في رثائهم.

ـ اختار الفرع العلمي في نهاية تعليمه الثانوي ولم ينقطع عن الأدب بل تفرّغ له وأقام في جماعة من الأصحاب الذين استهواهم الأدب.

ـ عام ١٩٤٢ توفيت جدته لأبيه أمينة وقد فجع بموتها ونظم فيها المراثي.

ـ عانى جده الذي كان يعيله صعوبات مالية ووقع في قبضة التجار والمرابين فاضطر إلى بيع قسم من أملاكه.

ـ عام ١٩٤٣ التحق بدار المعلمين العالية في بغداد، بعد أن أنهى دراسته الثانوية واختار فرع اللغة العربية وأقام في القسم الداخلي.

ـ ارتاد الندوات الأدبية في بغداد وكان يتردد إلى مقهى عرب أو مبارك أو الزهاوي وفيها كان يطالع دواوين الشعر العربي وبخاصة ديوان أبي تمام.

ـ شعر بمودة خاصة لاحدى زميلاته في دار المعلمين وتدعى لبيبة وكانت أكبر منه بنحو سبع سنوات واستمالته زميلة أخرى كان يسميها الأقحوانة وكانت تستعير منه دفتر شعره وتقرأه في سائر الزميلات.

ـ معظم قراءاته كانت في الشعر: ابن الرومي في رثاء المغنية بستان وديوان مهيار الديلمي والشعر والشعراء لابن قتيبة وأفاعي الفردوس لأبي شبكة وعلي محمود طه الذي أطلعه بترجماته على شعر لامرتين والفرد دي فينيي وبودلير وموسيه وشيلي. وكان يطالع الشعر الانكليزي مستعيناً بالقاموس.

ـ نظم مطولة عنوانها « ما بين الروح والجسد » عبَّر فيها عن تجاربه مع البغايا وقد افتقدت المطولة فيما بعد إلا مقاطع قليلة عثر عليها مؤخراً.

ـ عام ١٩٤٥ انتقل من فرع اللغة العربية إلى فرع اللغة الإنكليزية في دار المعلمين العالية، محاولاً أن يتثقف بتجارب الأدب الأجنبي. وانتمى في هذا العام أو قبيله بقليل إلى الحزب الشيوعي وانتخب رئيساً لاتحاد طلبة الدار وأخذ يلقي الخطابات السياسية الثائرة.

ـ شغف في هذا العام بإحدى زميلاته التي سماها « ذات الغمازتين » وقد نظم فيها شعراً، لكنها ما لبثت أن صدته وتزوجت ثرياً عراقياً. وقد أذكى ذلك في نفسه مشاعر الحقد الطبقي.

في هذه الفترة اكتشف السيّاب ت. س. إليوت وإديت سيتويل بتأثير المستر زبدي رئيس القسم الإنكليزي.

في ٢ كانون الثاني عام ١٩٤٦ فُصِلَ السيّاب من دار المعلمين إثر تزعمه حركة إضراب لمناوأة الإدارة في قرار اتخذته بإضافة سنة دراسية جديدة. وجاء في قرار الفصل أنه تم « لتحريضه على الإضراب ولاتصاله بطلاب المعاهد الاخرى لتأييده والدعاية المضرة التي نشرها».

ـ عاد بدر إلى جيكور وكان ينتقل إلى بغداد، حيناً بعد حين، ليشارك في مظاهرات ضد الصهيونية والسياسة الإنكليزية وقد سجن لفترة في سجن «بعقوبة».

ـ عاد إلى دار المعلمين في خريف عام ١٩٤٦ ونظم قصيدة «هل كان حباً » والتي اعتبرت أولى تجارب الشعر الحر لأنه اعتمد فيها التفعيلة الواحدة.

ـ طبع ديواناً في مصر بعنوان: «أزهار ذابلة » ووزّع ببغداد في كانون الأول ١٩٤٧ مع مقدمة لرفائيل بطي.

ـ في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨ وقع صالح جبر وبيفن معاهدة جديدة تكملة لمعاهدة ١٩٣٠ بين العراق وبريطانيا ، قامت إثرها مظاهرات اشترك فيها بدر بالمسيرات والخطب ووقعت اصطدامات مع الشرطة أهمها معركة الجسر.

ـ في العام ذاته أثيرت المشكلة الفلسطينية ، فشارك بدر ، أيضاً ، في المظاهرات التي قامت تأييداً للفلسطينيين، وتعرف عبرها إلى فتاة صابئية تدعى لميعة وقعت من نفسه موقع الإعجاب والشغف، لكن هذا الحب انتهى إلى الفشل كسواه ولم يخلف سوى بعض القصائد التي نشرت في ديوان أساطير.

ـ ابتداءً من خريف عام ١٩٤٨ عين أستاذاً للغة الإنكليزية في الرمادي وفي هذه البلدة نظم قصيدة (السوق القديم) على إيقاع الشعر الحر.

ـ فُصِلَ بدر من وظيفته في ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٩ بتهمة الانتماء الشيوعي وزج في الحبس ثمّ أطلق سراحه وراح يعمل في وظائف ثانوية متنقلاً بين البصرة وبغداد ، ممضياً معظم وقته في المقاهي.

ـ ظهر له عام ١٩٥٠ ديوان جديد بعنوان (أساطير). طبع في النجف، ومعظم قصائد الحب فيه نظمها في لميعة حبيبته الأخيرة. وفي هذه الفترة عمل في صحيفة الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري وصحف بغدادية أخرى.

ـ نظم خلال عام ١٩٤٩ وما بعده مطولتي «السلام» و « اللعنات » لكنهما لم تنشرا إلاّ في بعض الصحف وبشكل مختصر.

ـ عام ١٩٥٢ نشر مطولة (حفار القبور) وهي تتألف من ٢٢٩ بيتاً من الشعر الحر.

ـ قامت مظاهرات ذلك العام ضد الحكومة العراقية من جرّاء مفاوضات البترول، اشترك بها بدر، فاضطهد ففر إلى البصرة وعبر شط العرب إلى إيران. وفُصِلَ بدر مرة ثانية من وظيفته ابتداءً من ٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٢.

ـ في أوائل ١٩٥٣ غادر بدر إيران إلى الكويت وعمل في شركة الكهرباء.

ـ عاد بعد عام إلى بغداد وعمل في الصحافة وعيِّن في مديرية الاستيراد والتجارة.

ـ عام ١٩٥٤ نشر مطولتين: « المومس العمياء » و « الأسلحة والأطفال » وعمل كثيراً في الترجمة.

ـ عقد بدر زواجه في ١ حزيران ١٩٥٥ على إقبال بنت طه عبد الجليل، وهي معلمة من قريته تحمل شهادة التدريس الابتدائية. وفي خريف ذلك العام نشر كتاباً بعنوان: « قصائد مختارة من الشعر العالمي الحديث » وفيه عشرون قصيدة لكبار الشعراء المعاصرين.

ـ منذ تلك الفترة شرع بنشر نتاجه في مجلة الآداب البيروتية وحضر مؤتمر الأدباء العرب حيث ألقى محاضرة بعنوان: « وسائل تعريف العرب بنتاجهم الأدبي » وكان قد تَأَكَّدَ أنَّه انفصل نهائياً عن الحزب الشيوعي ومال إلى القومية العربية.

ـ وضعت زوجة بدر طفلة سميت غيداء في ٢٤ كانون الأول ١٩٥٦.

ـ أبتداءً من عام ١٩٥٧ أخذ ينشر شعره في مجلة « شعر » البيروتية وقبل دعوتها لزيارة بيروت حيث احتفل بقدومه.

ـ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ وضعت زوجة بدر صبياً سمي غيلان، فرح به والده فرحاً عظيماً ونظم فيه قصيدة: « مرحى غيلان ».

ـ في ١٤ تموز ١٩٥٨ قام انقلاب في العراق بقيادة عبد الكريم قاسم وأبيدت العائلة المالكة وانشأت الجمهورية العراقية، فحيى بدر الثورة العراقية.

ـ في أيلول ١٩٥٨ استقال بدر من منصبه وعين في وزارة المعارف مدرساً للإنكليزية في مدرسة الأعظمية براتبٍ عالٍ قدره ٥٠ ديناراً عراقياً.

ـ فُصِلَ من وظيفته مجدداً ابتداءً من ٧ نيسان ١٩٥٩ لمعارضته حكم قاسم ومناصرته القوميين، فعمل كمترجم في السفارة الباكستانية.

ـ ابتداءً من منتصف آب ١٩٥٩ نشر بدر سلسلة مقالات في جريدة الحرية بعنوان: « كنت شيوعياً » وفيها تهجم تهجّماً مقذعاً على الشيوعيين.

ـ في تموز علم ١٩٦٠ فاز بجائزة مجلة « شعر » لأفضل مجموعة شعرية ونَشَرَت له الدار مجموعة بعنوان «**أنشودة المطر**».

ـ عاد إلى عمله في مديرية الاستيراد والتصدير في ١٦ آب ١٩٦٠.

ـ استقال عام ١٩٦١ وذهب إلى البصرة بعائلته حيث عُيِّنَ في مديرية الشؤون الثقافية في مصلحة الموانئ.

ـ وفي هذه الفترة بدأت صحة بدر تتدهور، إذ ثقلت قدماه وبدأ يشعر بألم في القسم الأسفل من ظهره.

ـ في ٧ تموز عام ١٩٦١ وضعت زوجته طفلة سميت آلاء. وفي خريف ذلك العام ألقى محاضرة في روما بطلب من المنظمة العالمية لحرية الثقافة.

ـ في منتصف نيسان ١٩٦٢ طار بدر إلى بيروت للاستشفاء حيث ادخل مستشفى الجامعة الأمريكية وفي بيروت نشر ديوانه الجديد « المعبد الغريق » في دار العلم للملايين.

ـ أبرق الأدباء اللبنانيون بطلب مساعدة للسيّاب من الحكومة العراقية فأمده قاسم بخمسمائة دينار عراقي.

ـ خرج بدر من المستشفى الأمريكي ليتعالج في عيادة طبيب ألماني وضعه في مشد لتقويم العظام غطى جسده بأكمله. ونزل في فندق (سان بول)، تقوم على خدمته ممرضة جميلة تدعى ليلى. وما لبث بدر أن شغف بها وبثّها شعره وحبه واحتفظ بخصلة من شعرها.

ـ عاد إلى البصرة وإلى العمل في مصلحة الموانئ في ٨ أيلول ١٩٦٢ وفي ١٦ كانون الأول طار إلى لندن على نفقة المنظمة الدولية لحرية الثقافة، وقد تبين أنه يشكو من مرضٍ في أعصاب الحركة تأدى عن فساد في خلاياها، وظهر بشكل شلل وضمور.

ـ في آذار علم ١٩٦٣ ظهر له في دار العلم للملايين ديوان جديد بعنوان « منزل الأقنان » وفي هذا الشهر طار إلى باريس ليفحصه طبيب فرنسي دون أن يلقى جدوى من ذلك.

ـ فُصِلَ من عمله في ٤ نيسان ١٩٦٣ بعد أن تولى عارف الحكم لأنَّه كان قد مدح قاسماً، فأخذ يعمل كمراسل أدبي لمجلة « حوار » التابعة للمنظمة العالمية لحرية الثقافة.

ـ في ١١ تموز ١٩٦٣ أعيد إلى وظيفته.

ـ في ٩ شباط ١٩٦٤ ادخل إلى مستشفى الموانئ، بعد أن أصابته قرحة في مؤخرته ولم يعد له قدرة على تمالك أجهزة البول والإفراز، كما أنه أصيب بالتهاب الرئة والإسهال الشديد.

ـ في ٥ تموز نقل إلى مستشفى الكويت ليعالج على نفقة الحكومة الكويتية. وفي تشرين الأول بدأت تنتاب بدراً نوبات من الهلوسة ثمّ تطورت إلى حالات إغماء تدوم ساعات.

ـ في الخميس الموافق للرابع والعشرين من كانون الأول ١٩٦٤ توفاه الله إليه.

بدر شاكر السيّاب

ثـــورة الشــــعر.... ومــرارة المـــوت

في قرية صغيرة تدعى جَيْكور على الفرات، قرب مدينة البصرة جنوب العراق، ولد بدر شاكر السيّاب. وكان أبوه يعمل بزراعة النخيل وبيع التمر. وقد عاش بدر السنوات الأولى من طفولته سعيداً يتمتع باللهو والمرح البريء مع أترابه، إلى أن حصلت حادثة مفجعة كان لها أكبر الأثر عليه طوال حياته القصيرة.

ففي عام / ١٩٣٢م / والشاعر ما زال في السادسة من عمره، أسلمت والدته الروح وهي تضع مولوداً وخلّفت بدراً وأخوين يصغرانه سناً، ففقد ينبوع الحنان وتزوج أبوه، فابتعد عنه. ويبدو أن هذه الحالة الجديدة قد زادت من عمق آلامه، وأيقظت شجونه. وفي قصيدة بعنوان (خيالك) يقول:

خيالـــك مــــن أهلـــيَ الأقـــربين
أبـــي منـــهُ قـــد جـــرْدَتْني النـــساء
أبـــــــرٌّ وإنْ كـــــان لا يعقِــــلُ
وأمـــي طواهــــا الـــردى المُعْجِـــلُ

وتلاحق شاعرنا طيور الشؤم، وتتوفى جدته لأبيه التي كانت تعطف عليه وترعاه وتسهر على راحته، فصدمه موتها صدمةً عنيفةً فرثاها قائلاً: «جدّتي هي كلُّ ما خلّف الدهر من الحب والمنى والظنون. قد فقدتُ الأُمَّ الحنون فأنستني مصابَ

الأم الرؤوم الحنون». ويوجه حديثه إلى قبرها الذي احتضنها، ويرجوه أن يبقى على عنايته بها كما كانت ترعاه يتيماً:

أيهـــا القــــبرُ، كــــن عليهـــا رحيمــــاً

مثلمــــــا ربّـــــت اليتــــــامى بلـــــينِ

وقد كان موت أمه، وجدته، وزواج والده الثاني، أول وشاح أسود قاتم اللون يغشي عينيه، ويمحو أشياء لا يستهان بها من سعادته وأفراح قلبه.

ويتنقل بين جيكور وأبي الخصيب والبصرة، لاستكمال تعليمه وتحصيله الدراسي، ويلتحق بدار المعلمين في بغداد في مطلع العام الدراسي / ١٩٤٣ — ١٩٤٤ / حيث درس في قسم الأدب العربي في العامين الأولين، وانتقل إلى قسم الأدب الإنكليزي في العام الثالث. وفي نهاية السنة الخامسة عام / ١٩٤٩ م /، تخرّج في دار المعلمين بشهادة عالية في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي.

تميزت حياة السيّاب بالشقاء والقهر وعدم الاستقرار، على الصعيدين الشخصي والسياسي. فبالإضافة إلى يتمه، كما أسلفنا، نشأ بدر يلازمه شعور بأنّه دميم المنظر، نحيل الجسم وقصير القامة، لا يسترعي انتباه وإعجاب الفتيات الحسان تجاهه، لذلك تزوج زواجاً تقليدياً بفتاة من قريته ذات تعليم متوسط، اسمها إقبال طه عبد الجليل، وكانت ثمرة هذا الزواج ثلاثة أولاد.

وفي حياته العملية تقلب السيّاب في وظائف متعددة، بسبب الفصل من العمل الذي تعرض له أكثر من مرة لمواقفه السياسية الجريئة ونشاطه الحزبي.

أصبح بدر شاكر السيّاب في أوئل الأربعينيات من القرن الماضي - عضواً في الحزب الشيوعي العراقي. متى أصبح شيوعياً ؟ ليس معروفاً حتّى الآن بالضبط. إنّه يؤكد أنّه أصبح شيوعياً، هو وعمه الأصغر عبد المجيد عن طريق شخص إيراني، ولكنه لا يذكر متى، وهو يؤكد أنّه خلال الحرب العالمية الثانية كان يقوم بالدعاية للشيوعية. وقد اتصلت - والكلام للأستاذ ناجي علوش - بالسيد محمد الزرقا أحد زملائه في الجامعة، فذكر لي أن بدراً كان عضواً مؤازراً للحزب، من

السنة الأولى لدخوله الجامعة، وأنه ظل كذلك حتّى ترك الأستاذ الزرقا بغداد سنة / ١٩٤٥ م /. ويذكر الأستاذ الزرقا أيضاً أن بدراً كان من جماعة القاعدة، أي حزب القائد الشيوعي العراقي فهد، وأنَّه كان حتّى آنذاك يخلط بين الوعي والرفض. وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه بدر نفسه.

ويروي الأستاذ الزرقا أن بدراً انتسب للحزب الشيوعي عام / ١٩٤٥ م / ولقد بقي شاعرنا في الحزب الشيوعي مدة /٨/ سنوات. ليترك الحزب الشيوعي في زمن الزعيم عبد الكريم قاسم حين حدث الصدام الدموي الرهيب بين (الشيوعيين) و(القوميين العرب) في العراق، فوقف السيّاب ضد الشيوعيين، وانضم إلى الاتجاه القومي، فأنتج قصائد قومية عديدة نذكر منها « المغرب العربي » و « المومس العمياء » و « أنشودة المطر ».

ولقد كلفت بدراً هذه التجربة كثيراً، إذْ إنَّه اضطهد وشرّد، ولكنها أفادته كثيراً، إذْ حولت إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتاً. كان الموت، فيما مضى، موته وموت أمه فقط، أما الآن فقد أصبح الموت عامة موت الآخرين، وكان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أما الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين. أدرك في هذه المرحلة بأن فاجعته ليست فاجعته الخاصة بل فاجعة شعبه، على حدّ تعبير الأديب الناقد ناجي علوش.

وفي هذا الصدد... أتهم السيَّاب بالتقلب السياسي، والحقيقة أن السيّاب كان مثالياً عاطفياً، وكان يصدم بالواقع عندما يصل إلى مرحلة التطبيق العملي.

وفي مرضه، والجوع يرهق أسرته، والألم يتطلب الدواء الباهظ، لم يجد حوله معيناً، فطرق أبواب المسؤولين في العراق ليساعدوه، فما كان منهم إلاَّ أن ساوموه على قصيدة يمدح بها الزعيم مقابل المساعدة المرجوة. وفعل ما طلبوا، فحصل على مبلغ ضئيل، وأعاد الكرة، فقد كان يهون أمام تهديد الموت له إي التزام. ومع ذلك، كان موقفه من انهيار حكم قاسم في ١٤ رمضان (٨ شباط ١٩٦٣ م) موقفاً صحيحاً سجله في قصيدته (إلى العراق الثائر...):

يا للعراق

يا للعراق أكاد ألمح عبر زاخرة البحار

في كل منعطف ودرب أو طريق أو زقاق

عبر الموانئ والدروب

فيه الوجوه الضاحكات تقول: قد هرب التتار

والله عاد إلى الجامع بعد أن طلع النهار.

* * *

هرع الطبيب إليَّ وهو يقول: ماذا في العراق

الجيش ثار ومات قاسم، أيٌّ بشرى بالشفاء

ولكدت من فرحي أقوم أسير أعدو دون دواء

مرحى له أي انطلاق

مرحى لجيش الأمة العربية انتزع الوثاق

يا أخوتي بالله بالدم بالعروبة بالرجاء

هبوا فقد صرع الطغاة وبدد الليل الضياء

ولقد أخذ عليه أيضاً قصيدة في مدح شيخ الكويت، يرجوه فيها أن يرسله للعلاج في الخارج على أمل الشفاء. وفيما عدا هذا فإن موقف بدر شاكر السيّاب كان موقف القوميين العرب ـ الاشتراكيين.

وبعد، فقد استطاع الشاعر أن يضيء جوانب حياة طبقة خاصة من الشعب العراقي، هي طبقة الفلاحين، التي ترعرع بينها، وظل مشدوداً إليها، فاستطاع أن يصور خيبتها في الحب، وحرارة حنينها عندما تهجر الريف إلى المدينة، وإخفاقها في العمل السياسي، وهي تحمل مثاليتها في حب الأرض وحب الوطن، الحب المخلص الذي يري الخير كل الخير لهذا الوطن، والذي يريد السلام للعالم، العالم الذي يتمنى أن يعيش دون خوف أو جوع أو فقر أو مذلة، إلى عالم لم يعد فيه عبدٌ وسيدٌ:

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب،

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء... في بطء تذوب،

واستيقظ الموتى... هناك على التلال، على التلال

الريح تعول في الحقول. وينصتون إلى الحفيف

يتطلعون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل.. ويرجعون إلى القبور يتساءلون متى النشور !!

والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد.

لكنني في القرية الظلماء... في الغاب البعيد.

ومن هذه النواحي ارتفع السيَّاب بشعره إلى مرتبة الشعراء العظماء الذين ارتقوا بشعرهم إلى مصاف البقاء، على حد تعبير الأديبة الناقدة نبيلة الرزاز اللجمي.

كان شعر السيَّاب نقطة تحول أساسية في الشعر العربي الحديث، إذْ استطاع أن يصل بالقصيدة العربية إلى آفاق الحداثة والمعاصرة، ومراعاة المحافظة على الأصالة بالارتباط بالتراث، وفي الوقت نفسه، الانفتاح على الثقافات المعاصرة الأخرى للإفادة منها، والقدرة على صهر ذلك في تجربة خاصة فريدة وأصيلة ومعاصرة، وبذلك شكّل ظاهرة فريدة في شعرنا العربي الحديث.

كان بدر قد أصيب بمرض عضال لم يُمهله، إذْ أخذ يشكو من ضعف في ساقيه، فدخل المستشفى في بيروت، ثمّ ذهب إلى لندن وباريس، ولكن الطب عجز عن شفائه فعاد إلى الكويت حيث دخل المستشفى الأميري المجاني، ولكنه فارق الحياة في ١٩٦٤/١٢/٢٤.

لقد شكّلت هذه السنوات الأخيرة بين عامي / ١٩٦٠- ١٩٦٤ / مأساة السيَّاب الصحية والاجتماعية، حيث عانى من الموت يحمله بين ضلوعه في المنافي، وليس لديه إلاّ صوته ومناجاته الشعرية ممزوجة بدم الرئة المصابة حتّى مات من جرّاء داء السل:

أسمعُهُ يبكي، يناديني

في ليليَ المستوحد القارس،

يدعو: « أبي كيف تخلّيني

وحدي بلا حارس » ؟

غيلان، لم أهجرْكَ عن قصدْ...

الداء يا غيلان أقصاني.

إنّي لأبكي، مثلما أنتَ تبكي، في الدجى وحدي

ويستثير الليلُ أحزاني.

فكلما مرّ نهارٌ وجاء

ليلٌ من البرد،

ألفيتُني أحسب ما ظلّ في جيبي من النقد:

أيشتري هذا القليل الشفاء ؟

دواوينه الشعرية:

١ ـ (أزهار ذابلة) صدر سنة ١٩٤٧.

٢ ـ (أساطير) صدر سنة ١٩٥٠.

٣ ـ (المومس العمياء) صدر سنة ١٩٥٤.

٤ ـ (الأسلحة والأطفال) صدر سنة ١٩٥٥.

٥ ـ (حفار القبور) صدر سنة ١٩٥٦.

٦ ـ (أنشودة المطر) صدر سنة ١٩٦٠.

٧ ـ (المعبد الغريق) صدر سنة ١٩٦٢.

٨ ـ (منزل الأقنان) صدر سنة ١٩٦٣.

٩ ـ (شناشيل ابنة الجلبي) صدر سنة ١٩٦٤.

١٠ ـ (إقبال) صدر سنة ١٩٦٥.

وفيما يلي ما وعته ذاكرة الدكتور محمود السمرة، عن زيارة بدر شاكر السيّاب إلى الكويت، من أجل تلقي العلاج الطبي المجاني:

« لا أذكر اليوم، ولكنه كان من أيام ربيع سنة ١٩٦٤ م، كنت في ذلك اليوم في مجلة (العربي) مع أستاذنا الراحل الدكتور أحمد زكي، وكنت يومئذ أنعم بظل وارف من نقاء إخوان الصفا والودّ في وزارة الإرشاد (وزارة الإعلام اليوم): بدر خالد البدر، وأحمد السقاف، وعبد الرزاق البصير (أبو عدنان) مدير مكتبة الوزارة.

قال لي أبو عدنان في ذلك اليوم: ما رأيك في أن نزور بدر شاكر السيّاب، فهو مريض يعالج في المستشفى الأميري. وعادت بي الذكريات إلى سنوات سابقة، إذْ ليست هذه أول مرة أسمع فيها أن بدر شاكر السيّاب يجيء إلى الكويت، ففي عام /١٩٥٢م/ استطاع بدر أن يصل إليها عن طريق إيران في سفينة شراعية قاعها من الطين، هارباً، متخفياً، على إثر ما عرف في تاريخ العراق الحديث باسم (انتفاضة تشرين). وفي الكويت كان يحيا مع العمال العراقيين في حالة بالغة من البؤس والضنك، حيث تتكدس الأعداد منهم في غرفة واحدة، وبينهم المريض والمسلول. وعلمت أنه كان يجلس بعد الظهر معهم في المقاهي التي يرتادونها. وذهبت إلى هذه المقاهي، وكان موقعها في (الصفاة) آنذاك كما أذكر، أتأمل في الوجوه باحثاً عنه، ولكنني لم أعثر عليه. وعدلت عن البحث، عندما بدأت عيون الجالسين فيها تنظر إليَّ بشك وارتياب.

وفي أثناء إقامته في الكويت التي امتدت إلى ستة أشهر، نظم رائعته (أنشودة المطر)، هكذا يقول بدر نفسه، وهي قصيدة حافلة بالأمل في التغيير، كما نظم فيها أيضاً قصيدته الذائعة الصيت « غريب على الخليج » التي تمثل الإحساس بالغربة والشوق العارم للعودة إلى العراق:

الريح تصرخ بي: عراق

والموج يُعولُ لي: عراق، عراق،

ليس سوى عراق

البحر أوسع ما يكون، وأنت أبعد ما تكون.

والبحر دونك يا عراق

حتّى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق.

وأفقت من هذه الذكريات لأتوجه و(أبو عدنان) لزيارته في المستشفى. وجو المستشفيات، كل المستشفيات ثقيل حزين. وأخذنا نبحث عنه بين المرضى، حتّى وجدناه وسط الزحام، جلداً على وضم، كومة من العظم، لا تزن إلاّ القليل القليل، ولا تدرك أنها لإنسان ما زال حياً إلاّ من حركة العينين الزائغتين الحزينتين البائستين اللتين تنبئان بأن صاحبهما ينتظر مصيره المحتوم في أية لحظة. وجرى الحديث في جو مشحون بالحزن على شاعر قمة في شعرنا الحديث، لا تكاد تسمع الصوت منه إلاّ همساً بعد جهد وعناء. وهل يمكن أن يدور الحديث في هذا الجو إلاّ عن حالته الصحية، وها هي أمامنا نراها ؟!

لقد أسعدنا أبو غيلان من الخليج إلى المحيط بقصائده التي هزت أدق مشاعرنا: غريب على الخليج، وأنشودة المطر، وحفار القبور، والمومس العمياء، فبم أسعدناه ؟ وماذا لقي من دنيانا غير الإهمال ؟ وخرجنا من هذه الزيارة بحزن يسكننا، أقلقني أياماً وليالي، حتّى أنني لم أجد الشجاعة الكافية لزيارته ثانيةً.

ثمّ علمت أنه قد غادر المستشفى عائداً إلى عائلته في البصرة، وبعد أيام وصلت إليَّ رسالة منه، يشكرنا فيها على الزيارة، ومع رسالته قصيدة يرجو أن تنشر في المجلة « وراجياً أن ترسلوا إليّ قيمة المكافأة لأستعين بها على شراء الدواء اللازم »!! بدر شاكر السيّاب لا يجد ثمن الدواء ! إذن هذا هو السر وراء حضوره إلى الكويت، فالعلاج فيها مجاني، والرعاية الطبية جيدة. وسارعت بإرسال المكافأة إليه، على أن تظهر القصيدة في أول عدد لم يكتمل صف حروفه بعد، وكان من

عادة مجلة « العربي » أن يكون لها في المطبعة عددان مكتملا الإخراج يوم صدور العدد الجديد إلى السوق. وبعد شهر أو أكثر قليلاً، وبعد صدور العدد الجديد من العربي بأيام، حمل البريد إلينا في « العربي » الرسالة المسجلة التي أرسلناها إلى بدر، وهي على حالها لم تفتح، وقد كتب على الغلاف: « المذكور قد توفي » !؟

وتأملت في الخط على المغلف، إنه خطه هو !

ترى لماذا رد الرسالة دون أن يفتحها ؟!

ولم أجد من تعليل سوى أنه لم يجد قصيدته، فظن، وهو الشاعر المفرط الحس المسكون بالهواجس، أن المجلة لا تعتزم نشر قصيدته، وأنها تجود عليه بهذا المبلغ مساعدة منها لتمكينه من شراء الدواء. ولم يطل غيابه في البصرة، إذ سرعان ما عاد إلى الكويت، لينزل في المستشفى نفسه، وليفارق الحياة في الساعة الثانية والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الرابع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٦٤ م. رحم اللّه أبا غيلان، ولازال ثراه تبلله قطرات من أنشودة المطر.

مطر....

مطر....

مطر....

سيعشب العراق بالمطر

خلاصـــة عـامـة

وممـا سـبق عرضـه وجـدنا أن الـسيَّاب شـغل نقـاده في حياتـه بتغـيير مواقفـه السياسية، فقـد بـدأها في صـفوف الـشيوعيين، ثـمّ مـا لبـث أن عـاداهم أبلـغ العـداء وأوجعـه، ومـال إلى صـفوف القـوميين، حتّـى إذا التقـى بمجلـة « شـعر » ومحرريهـا انخرط في صفوفهم ، وتبنى مفاهيمهم الشعرية والسياسية الـتي هـي أكـثر قربـاً إلى الغرب منها إلى الشرق.

ولا نظـن ذلـك النـوع مـن الاهتمـام إلاّ مرحلـة عـابرة تقتـضيها المعاصـرة، ولكـن الـشعر لا يكتـب لجيلـه أو زمانـه، وكـثيراً مـا تـتغير الظـروف والأحـوال والأسمـاء، ويبقى الشعر، فقد بقى شعر أبي الطيـب المتنبي، وأصبح سيف الدولـة الحمـداني في تـاريخ الأدب هامـشاً علـى قـصائده، لا يـرجح للقـصيدة فـضلاً أو يـسلبها جمـالاً، فـإن الفن أكثر حياةً وثباتاً من تقلبات السياسة وتغيرات الأيام.

وقـد كـان الـسيَّاب أكـثر معاصـريه فطنـة في تـصوره لماهيـة الـشعر، وأشـدهم إخلاصاً للقناع الشعري الذي اختـاره. فلقـد وهـب الـسيَّاب حسـاً تاريخيـاً بهـذه المرحلـة التي يجتازهـا الـشعر العربي، مشاركـاً فيهـا سـواه مـن أوجـه الحيـاة العربيـة الحديثـة، في طموحـه وطموحهـا إلى التجـدد والتوفيـق بـين الأصـالة والمعاصـرة أو بـين المـوروث والمستفاد، على حد تعبير الشاعر صلاح عبد الصبور.

وهنـا لا بـدّ مـن الإشـارة إلى أن قـصيدة (أنـشودة المطـر) كانـت منعطفـاً مهمـاً في انتـاج الـسيَّاب / ١٩٥٤ م /، لقـد سـاهمت هـذه القـصيدة في ترسـيخ قـدم الـشاعر في عـالم الشعر، ورسمت معـالم القصيدة الحديثة وثبّتت مكـانتها لزمن طويل كـثيراً مـا دعي السيَّاب بشاعر المطر وقد ظل هذا اللقب عالقاً به إلى ما بعد وفاته.

لهذه القصيدة مـوازٍ في شـعر إيـديث سـيتويل بعنـوان « مـا يـزال المطـر يـسقط » إن نظرة فاحصة على كلتا القصيدتين تكـشف لنـا عـن مـشابهات صـارخة في المضمون

والشكل، في الرؤيا والرمز، في التركيب والصور والإيقاع، حتّى ليخيّل إلينا أن كلتا القصيدتين قد ولدتا من خيال أو رحم واحد. إنهما توأمان ولكنهما يمتلكان شخصيتين متمايزتين.

طبعاً إن التأثر قائم، لكن السيَّاب يمتشق رؤياه الشعرية من مشكلات بيئته وعصره، والمؤثرات الشعرية تأتي لتخدم هذه المعاناة وهذه الرؤيا في بيئة وإطار معينين.

إن قصيدة « المسيح بعد الصلب » للسيَّاب ليست غريبة على صور ورموز الشاعرة في القصيدة المذكورة إياها و « أغنية شارع » وغيرها من القصائد لشاعرة التشاؤم والحزن.

إلا أن السيَّاب أكثر إيماناً بالحياة وأقل تشاؤماً وحزناً. فالحياة في مطر السيَّاب ومسيحه أقوى من الموت، والمسيح في شعره تموز لا تخطئه القيامة، إلا أن التشاؤم يطبق على صوت الشاعر ويصبح علامة بارزة في قصائده التموزية المتأخرة «كسر بروس بابل » و « مدينة السندباد » و « مدينة بلا مطر ».

وقد ترجم د. نذير العظمة قصائد بعينها للشاعرة سيتويل لاعتقاده بأنها ذات تأثير مباشر على بعض قصائد السيَّاب، ناهيك عن أنَّ المؤثرات تتعدى هذه القصائد إلى منحى الشاعر العام وموقفه الإنساني. إنّ قصائد سيتويل الثلاثة ضد إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما لها أهمية مماثلة، وهي جديرة بالاهتمام لنفس الأسباب.

مهما يكن فإن تقديم الشاعرة سيتويل إلى قراء العربية أمر ضروري لا لفهم بعض إنتاج الشاعر العراقي حقّ فهمها فحسب بل لإلقاء مزيد من الضوء على العلاقات والمؤثرات الأجنبية في حركة الشعر الحديث من زاوية الدراسات المقارنة.

ويبدو فهم هذه الحركة ناقصاً ومشوّهاً عندما تعزل عن تفاعلاتها مع حركة الشعر العالمي على حد تعبير الدكتور نذير العظمة.

بـدر شـاكر السـيّاب ومسيرته الشـعرية

نستطيع أن نُقسّم حياة بدر وشعره إلى أربع مراحل:

١. **المرحلة الأولى:** الرومانسيّة من ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ (خمس سنوات).

٢. **المرحلة الثانية:** الواقعيّة من ١٩٤٩ ـ ١٩٥٥ (ست سنوات).

٣. **المرحلة الثالثة:** التموزيّة أو الواقعيّة الجديدة من ١٩٥٦–١٩٦٠ (أربع سنوات).

٤. **المرحلة الرابعة:** الذاتيّة من ١٩٦١ ـ ١٩٦٤ (ثلاث سنوات).

هذه المراحل متداخلة أحياناً:

١. **المرحلة الرومانسيّة:** مأساة بدر تكمن في وفاة أمِّه وهو صغير، وزواج والده من امرأة ثانية، فكان يعيش في غربة. وقد ازداد الشعور بالغربة عنده عندما هجر قريته وذهب إلى المدينة. فكان الانتقال من الريف الذي أحبّ، إلى المدينة التي يمقت، بمثابة ضياع كبير ترك أثراً واضحاً في حياته.

إن الرومانسيّة التي عاشها بدر واستمدّها من واقعه، تَعرّف إليها كذلك من دراسته للشعر والأدب الإنكليزي ـ بيد أنّ يوسف الخال يقول في مقابلة معه، إنَّ معرفة بدر للإنكليزية كانت جدّ ضعيفة ـ وقد تأثر خاصة بشيلي وكيتس. ولكن بدر لم يقلِّد أحداً، كما أنّه لم يستطع أن يسير تحت راية الرومانسيين العرب، ولم يستطع أن يحمل راية الرومانسيين الإنكليز.

٢ . **المرحلة الواقعيّة:** بعد أن انضمّ بدر إلى الحزب الشيوعي، لقي الاضطهاد والتشرّد بسبب ذلك وقد أثرت فيه هذه التجربة، بحيث تحوّل إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة، كان الموت، فيما مضى، موته وموت أمّه، أمّا الآن فقد أصبح الموت عامةً، موت الآخرين. كان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أمّا الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين. أدرك في هذه المرحلة أنّ فاجعته ليست فاجعته الخاصة، بل فاجعة شعبه.

نستطيع أن نتبين موقفه هذا من خلال قصائده: حفّار القبور ـ الأسلحة والأطفال ـ المومس العمياء. وهو كان في ذلك الوقت يكافح مع الحزب الشيوعي العراقي ضدّ الطغيان والمؤامرات الاستعماريّة ويطّلع على الثقافة الماركسية.

وفي هذه المرحلة أصبحت الأسطورة جزءاً من قصيدته. كما أعاد للقصيدة العربية ارتباطها بقضية الجماهير. وقصيدته « أنشودة المطر »، خير مثال على التزامه بقضية شعبه. في هذه القصيدة، تتجلّى الوحدة الكاملة بين الشاعر ووطنه، فجوعه وحرمانه وألمه وتمزّقه أصبح جوع العراق وحرمانه المرّ وتمزقه.

٣ـ المرحلة التموزيّة أو الأسطوريّة: تجاوز الشاعر الرومانسيّة وتجاوز الواقعيّة الاشتراكيّة، وانتقل إلى استخدام الأسطورة والرمز في شعره. كان الموت في المرحلة السابقة حادثة، وكان الجوع ظاهرة، وكان النضال رجولة. أمّا في هذه المرحلة فقد تحوّل الموت إلى أسطورة يتمثل بالمسيح وتموز.

وفي شِعر هذه المرحلة، يحاول الشاعر بعث قريته جيكور، التي تُصبح رمزاً للوطن، وفيها يبلغ أوجه الشعري، كما يظهر تأثره بالشاعر تي. س. اليوت T.S.Eliot (١٨٨٨ — ١٩٦٥).

٤ . المرحلة الذاتيّة: هي المرحلة الأخيرة في حياته، خيّم فيها شبح الموت على الشاعر وبات يعيش هاجس الموت، فيقول:

أَهكذا السنون تذهبُ

أَهكذا الحياة تنضبُ...؟

أُحسّ أنّني أَذوب، أَتعبُ،

أَموت كالشجرْ...

تصبح قصائده تنضح برائحة الموت، وهو ينتظر رصاصة الرحمة. وهو في صراعه مع الموت، وحيد لا يستطيع أن يساعده أحد. هل يستطيع أن يفلت من

قدره...؟ ! لقد أقعد الشاعر المرض، ولكنّه ظلّ ينظم الشِعر، فكأنه في سباقٍ مع الزمن، ليقول كل ما أراد أن يقوله قبل أن يسكته الموت، وفي ذلك يقول:

لأكتبَ قبل موتي، أو جنوني، أو ضمور يدي من الإِعياءِ

خوالجَ كلِّ نفسي، ذكرياتي، كلَّ أَحلامي

وأوهامي

وأَسفحُ نفسيَ الثكلى على الورقِ

يقرأْها شقيٌّ بعدَ أَعوامٍ وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا

وآلى رغمَ وحش الداءِ والآلامِ والأرقِ

ورغمَ الفقرِ أَنْ يحيا.

حوار صريح مع الابن الوحيد
للشاعر بدر شاكر السيّاب

❖ والدي عاش مضطهداً سياسياً واجتماعياً وعانى كثيراً.

يطلق بعض النقاد على الشاعر الراحل بدر شاكر السيّاب، لقب « أبو الشعر الحديث»، فقد أحدث خلال حياته ثورة كبيرة في عالم الشعر وأسهم بإضافة كل ما هو جديد ومؤثر من خلال مدينته الشعرية ذات الطراز الخاص.

الصحفية سميرة التميمي أجرت حواراً مع غيلان، الابن الوحيد للسيّاب الذي يعيش في أمريكا منذ /٢٣/ سنة، والذي تردد اسمه كثيراً في قصائد والده. وننشر النص الكامل للحوار، نظراً لأهميته، وللتوثيق الأدبي:

❖ لنتعرف أولاً على أبناء وأحفاد السيَّاب وزوجته.

❖ ❖ نحن ثلاثة، غيداء، البنت الكبرى وتعمل مهندسة كهرباء، وآلاء خريجة كلية الإدارة والاقتصاد، متزوجة ولها ثلاثة أولاد، وأنا متزوج من طبيبة أسنان ولي ولد اسمه بدر في عامه الثامن، وبنت اسمها لينا في شهورها الأولى، وأعمل مهندساً مدنياً في إحدى المؤسسات الهندسية في الولايات المتحدة الأمريكية. وما زالت والدتي تعيش في البصرة مع العائلة.

❖ ما الذي تتذكره عن الوالد ؟

❖ ❖ للأسف قضيت مع والدي طفولة قصيرة، فقد توفي وأنا في عامي السابع، لكن ذاكرتي لا تزال تختزن كماً لا بأس به من الذكريات التي تتعلق في الغالب بمرض الوالد وأسفاره. ورحلتي مع والدتي إلى لبنان وسورية والكويت لمرافقته في العلاج، والآن حين استعيد تلك الفترة، أدرك ما كان يعانيه والدي، وما كان يكابده من مشقة حتّى يبدو مرحاً وطبيعياً أمام أولاده، رغم أن الآلام كانت تعوقه عن الحركة وتشل جسده.

❖ وكيف تعايشت مع تلك المرحلة ؟

❖ ❖ بسبب أعمارنا الصغيرة، لم نكن أنا وأختي قادرين على استيعاب ما يحدث ووضعه في خانة «التعاسة» أو «الحرمان» فقد كنا نلعب ونلهو ونعيش يومنا كبقية الأطفال، لكن مرحلة الإدراك جاءت لاحقاً بعد وفاة الوالد، وبدأ معها الإحساس العميق بالفقدان واليتم، وهذا ما عجّل في نضجنا وجعلنا أكثر قدرة على امتصاص المرارة واختزان الألم.

❖ بصفتك ولداً وحيداً، هل شعرت بالمسؤولية إزاء الأسرة ؟

❖ ❖ لا أعتقد ذلك. فقد أكرمني الله بأم كبيرة القلب، كانت هي الراعي للأسرة، إضافة إلى أخوالي الخمسة، الذين حاولوا التخفيف عن معاناتنا بالعطف والوجود في حياتنا والتواصل معنا على قدر ما يستطيعون، كما أن والدتي تولّت الأمور المادية للأسرة، فقد كانت معلمة في إحدى مدارس البصرة قبل وفاة والدي، واستمرت بعده حتّى سن التقاعد.

❖ وماذا عن أصدقاء والدك ؟

❖❖ عانى والدي من جحود أصدقائه، كما أن كثيراً من أولئك الذين أدعوا الصداقة وكتبوا المقالات، وشاركوا في احتفالات تقام باسمه لم يكن لهم وجود عندما احتاجهم، بخاصة خلال فترة مرضه ومعاناته، بل إن بعضهم من أصدقائه العراقيين شاركوا في محاربته واضطهاده خلال حياته.

❖ ما الذي منحك إياه اسم بدر شاكر السيّاب ؟

❖ ❖ أشياء كثيرة لعلّ أهمها الشعور بالفخر، والمسؤولية الكبيرة التي تقع على عاتق الابن تجاه اسم وتراث أبيه.

❖ هل ثمة توجهات أدبية لدى أولاد السيَّاب ؟

❖ ❖ أيام الثانوية والجامعة، بدأت أختي الكبرى غيداء بكتابة القصة القصيرة، كما كتبتُ أنا عدة محاولات شعرية في مطلع الشباب، لكننا لم نجرؤ على النشر، لأن وضعنا كان صعباً بحكم اسم الوالد الذي يجعلنا تحت المجهر والمراقبة، إضافة إلى رقابتنا الثانية على أنفسنا، فقد كنا نخاف ألاَّ نكون

بالمستوى الذي يتوقعه الناس من أولاد السيَّاب، لذا ابتعدنا عن النشر، وخفت عندنا جذوة الكتابة.

❖ خلال مناظرات حول الريادة في الشعر الحر، ما زال أغلب النقاد يضعون اسم السيَّاب في المقدمة، في حين لا يفعل هذا قلة، ماذا تقول أنت ؟

❖ ❖ أنا أقول ما كان يردده والدي: « ليس المهم الريادة وإنما الإجادة في الشعر، فربما يأتي من المتأخرين من يتفوق على الأولين، ولا يشفع لشاعر كونه أول من طرق هذا الباب أو ذاك قبل غيره - المهم أن يكتب - فيجيد ».

❖ ما أكثر ما تحرص عليه من مقتنيات والدك ؟

❖ ❖ أكثر ما أحرص عليه مسودّات ومشاريع القصائد المكتوبة على قصاصات الورق، التي فُقد جزء كبير منها وتسرب آخر، بسبب ظروف الأسرة، فقد اضطررنا إلى ترك الدار التي كنا نسكنها في حياة أبي، بناء على أمر رسمي صادر من مصلحة الموانئ في البصرة، بسبب استنفاد والدي لإجازاته المرضية مما دعاهم إلى فصله وإجباره على ترك البيت، وقد تزامن ذلك مع وصول جثمان والدي من الكويت، وكان هنالك ارتباك شديد في الأسرة، مما أدى إلى فقدان كثير من الأوراق المهمة.

❖ ربما لم تكن عائلتكم تعطي أهمية لتلك الأوراق ؟

❖ ❖ لا أعتقد ذلك. فقد وضعت العائلة لاحقاً، كل مقتنات الوالد في صناديق مقفلة، لكن كان يأتي إلى بيتنا زوّار ورجالات الصحافة من بلدان عربية متعددة، ويطلبون صوراً وقصائد وقصاصات، وكنا نعطي من يشاء على أمل أن يكون أهلاً للثقة ويعيدها إلينا، وأعتقد أن الكثير قد فقد عن هذا الطريق، وللأسف أرى الآن على صفحات الانترنت مخطوطات لقصائد والدي بخط يده، يملكها أشخاص لا يمتون له بصلة، كما أنهم لم يعاصروه أصلاً.

❖ حاول المطرب سعدون جابر إنتاج مسلسل عن حياة الشاعر السيَّاب، لكن أوقفت هذا المشروع، لماذا ؟

❖ ❖ القضية بدأت عندما نشرت مجلة عراقية خبراً عن قرب انتهاء المطرب سعدون جابر من تصوير مسلسل عن حياة والدي، وقد قرأت العائلة الخبر واتصلت بالمطرب للسؤال عن سبب إلغاء دورها وعدم اشراكها سواء بالاستئذان، أو المشورة، أو حتّى في قراءة السيناريو، وكان ردّ الفعل الطبيعي أن نطالب بإيقاف العمل، لكنهم هددوا بإلزامنا بدفع تكاليف الحلقات المصورة في محاولة منهم لإرهابنا وتخويفنا، لكن أختي آلاء استمرت بالقضية وكسبتها، لا سيما أن المسلسل عمل درامي يتطرق للحياة الشخصية والعاطفية لوالدي، ويتحدث عن شخصيات لا تزال بيننا، ولو كان المسلسل ثقافياً أو توثيقياً لما أوقفناه بالتأكيد.

❖ في لقاء صحفي أجريته مع الفنان سعدون جابر أكد لي أن العائلة كانت تطالب بمبلغ كبير من المال ؟

❖ ❖ هذا كلام غير صحيح، وقد كذّبته أنا في ردّ نشرته لي جريدة «الشرق الأوسط» مشكورة، والحقيقة أن المال لم يكن في حسبان العائلة، ونحن لا نبيع تراث والدنا بأي ثمن، لكننا طالبنا فقط بحقنا القانوني في أن يكون لنا رأي في ما يعرض، والدليل على قولي إن القضية التي رفعتها أختي هي دعوى مدنية، ومثل هذه الدعاوى لا تتضمن أي تعويض مادي.

❖ أهي المرة الأولى التي يلغى فيها دور عائلة الشاعر السيَّاب في أمور تتعلق به؟

❖ ❖ لا بالتأكيد لأنه على الرغم من أن تراث والدي لا يزال يتمتع بقانون حماية الملكية الفكرية، ولم يمر على وفاته خمسون سنة بعد، إلا أنّه يتعرض للاستغلال، وخير مثال على ذلك ما تفعله إحدى دور النشر التي حصلت في عام ١٩٧٠ على حقوق نشر المجموعة الشعرية الكاملة لمدة خمس سنوات فقط، إلاَّ أنّها لا تزال تطبع وتوزع المجموعة نفسها وتضع في مقدمة الكتاب عبارة «حقوق النشر محفوظة».

❖ « جيكور» القرية التي ولد فيها الشاعر و « بويب »، النهر الذي تغفو على جانبيه غابات النخيل، ما الذي بقي منها للعيان ؟

❖ ❖ تردد اسم «جيكور» و «بويب» في كثير من قصائد والدي، والحقيقة أن جذور العائلة لم تنقطع عن هذه القرية، وعن قرية أخرى تدعى «بكيع»، وفيها

«منزل الاقنان» و «دار جدي» ، ومنازل كثير من أعمام والدتي وأبناء عمومتي ، لكن الحرب العراقية الإيرانية التي نشبت عام ١٩٨٠ ، طالت هذه الأماكن كما سمعت من أهلي وأصابها الدمار والإهمال وحولها إلى أطلال وخرائب.

❖ لكن كان يمكن بعد ذلك أن تتحول هذه الأماكن إلى متحف يضم آثار الشاعر ؟

❖ ❖ أتفق معكم في هذا ، وأذكر أن وزارة الثقافة العراقية كانت اشترت في السبعينيات دار جدي ورمّمته من أجل تحويله إلى متحف ، لكن المشروع لم يكتمل وأهملت الدار من جديد.

❖ وهل في ذهنك مشروع ما ؟

❖ ❖ كان هناك اقتراح قديم لتحويل بيتنا في منطقة المعقل ، التابعة لمديرية الموانئ في البصرة إلى متحف شخصي ، بخاصة أنه البيت الذي عاش فيه والدي السنوات الأربع الأخيرة من حياته ، وشهد مرحلة نضجه الشعري ، وكان من الممكن أن نبقي على كل شيء في مكانه ، الأثاث ومنضدة الكتابة ، لكن تنفيذ ذلك صار مستحيلاً الآن ، بعد أن هدمت مديرية الموانئ البيت وأزالته من الوجود لأسباب لا أعرفها بالضبط بسبب ابتعادي عن العراق منذ حوالي عشرين سنة.

❖ ما الذي تعنيه لك قصائد الوالد التي يتردد فيها اسمك ؟

❖ ❖ لا يمكن أن يمسني عاطفياً ووجدانياً أي شيء ، بقدر ما تثيرني وتمس أعماقي البعيدة القصائد التي يخاطبني فيها والدي ، كابن أحياناً ، وكرمز للطفولة والمستقبل في أحيان أخرى.

❖ هل ترى أنَّ السيَّاب قد أخذ ما يستحقه ؟

❖ ❖ كشاعر نعم ، فقد أخذ والدي المكانة التي يستحقها بعد أن شق طريقه بالصخر ، أما على صعيد الحياة ، فأعتقد أنّه عاش مضطهداً ، سياسياً واجتماعياً.

❖ بأي الكلمات تصف والدك ؟

❖ ❖ السيّاب الأب، كان قلباً مليئاً بالطيبة والحنان والرقة، والسيّاب الشاعر كان مخلصاً للشعر غاية الإخلاص، يكتب بكل كيانه، ويحس بكل كلمة يكتبها.

❖ وماذا تريد أن تقول له ؟

❖ ❖ أقول له كلمات أستعيدها من إحدى قصائده «... أود لو أراك ».

بدر شاكر السيّاب

شهادات أدبية . . . وآراء ذوقية(*)

بأقلام:

- **محمود درويش**
- **سعدي يوسف**
- **سلمى الخضراء الجيوسي**

(*) المصدر: مجلة المدى العدد ٩.

ابن تاريخ الشعر العربي، ومُحوِّل مجراه

محمود درويش

كنتُ أنتمي إلى جيل وقف مذهولاً أمام فوضى القيامة. فقد انكسر المكان، بما فيه من سيرة وكائن، وأحدث ما يشبه القطيعة بين الذات وأبعادها، وما بين الحاضر والأمس. وحين كنا نتطلع إلى مصائرنا القادمة إلينا، واحداً واحداً، كان شكل الجماعة يتكثَّف كالشبح القادر على امتلاك المكان، وعلى مغادرته في آن.

أمَّا الصراخ الذي لا بد منه، كما يحدث عادةً في ليل الكابوس، فلم يكن كافياً إلاَّ للتأكد من بقاء الحواس في مجال عملها المتبدِّل.

جيلٌ مرمي على كواهله: عليه هو وحده أن يكوّن العناصر الأولى لتكوين حياة متخيَّلة، على مرأى من الحياة الواقعية. وعليه هو أن يكون المُكَوِّن.

لعل ذلك كان هو الإرهاص الأول لحاجتنا الإنسانية إلى معالجة البكاء بالغناء. ولعل ذلك كان الإصغاء الأول لضرورة الشعر. ولكننا كنا محرومين من إمكانية اللعب البريء، في الوقت الذي كنا نفتقر فيه إلى مهارة اللعب بالكلمات وفي الكلمات.

كانت اللغة التي ورثناها، بلا انتظام، قد بلغت حد الإشباع في وصف ما لا يقترب من وصف حالتنا الجديدة. ولكنها هي، تلك اللغة، ما يشير إلى هويتنا وإلى شكل وجودنا ونسيجه، وفيها، لا في الواقع الطارئ، نعثر على دفاع الجسد عن الروح، وعن حاجة الروح إلى جسد.

وهناك كثيراً ما التقى الواقع باللا... واقع، واندفعت الحادثة اليومية إلى البحث عن شخوصها في ما يحاذيها من أساطير تغري الشاهد باحتضان الماضي الذي لا يمضي، ليواصل الزمن نسق إيقاعه المنتظم، ولنتمكن من الإقامة على تلك الأرض التي انتقلت فينا من وظيفتها الرومانسية إلى احتلال مرتبة الجوهر المقدَّس.

لكن للشعر أيضاً أسئلته المركبة، أسئلة لم نواجهها في البداية: كيف يمتلك وجوده التاريخي بتعبيره عن لحظته التاريخية من جهة، وكيف يمتلك ما يتيح له الإفلات من وجوده التاريخي ليعيش في لحظة تاريخية أخرى ؟

لم يكن جيلي المحاصر ثقافياً، آنئذ، شديد الإصغاء لدويِّ الانفجار العميق في الحياة الثقافية العربية، وفي بنية القصيدة الباحثة عن ذاتها الجديدة ورؤياها الجديدة، في علاقتها وتعبيرها معاً، والبنى العربية المحتقنة بالصراع الاجتماعي والطبقي والوطني. ولم يكن أيضاً شديد الإصغاء لصراع الخيارات الشعرية وتوتر البحث عن مرجعيات التجديد.

ولم يتجاوز سؤالنا الشعري مساحته الموضوعية: جدل العلاقة بين النص والواقع. « على الشعر أن يعبِّر وأن يحرر، أن يُعَبِّر وأن يُغيِّر ـ تلك مساحة رحبة تتسع لما لا نهاية له من الخلاف أو الاختلاف بين أبناء جيل كان يبحث، بسليقة الممارسة لا بالمعرفة، عمّا يحرره ويحرر لغته من القهر ومن التقليد، وعن انسجام محكم بين الجمالية والفاعلية.

ولم يكن الصدى، الذي يخترق الحائط بين الداخل والثقافي الوطني وبين الخارج العربي، كافياً لتطوير أسئلتنا الأولية ووضعها في سياق العملية الشعرية العربية، التي كانت تتم فيها ولادة الجديد من ذاته التاريخية ومن علاقتها بالآخر، عبر استيعاب محاولات التجديد المتداخلة وتجاوزها.

ولكن صدى السيّاب، ذا الرجع المتدفق، كان كافياً إلى حد ما، لتوليد الرغبة في إحداث قطيعة ما بين لغة الماضي من جهة، وبين الرغبة في امتلاك أرض الماضي باللغة، عبر إدراكٍ شعري جديد لحركة المعنى ولشكل هذه الحركة.

تعرَّفتُ على شعر بدر شاكر السيّاب، دفعةً واحدةً، من خلال عمله الكبير «أنشودة المطر »، فعثرت على ضالة المثال الشعري دفعة واحدة. اخترقني النهر ولم أعد، بعد القراءة، مَنْ كُنْتُهُ قبل القراءة. كانت الفتنة والجرح يصعدان بي إلى نقاط التقاطع الغامضة التي يتحقق فيها الشعر، ثمّ يتكتّم على سره ليبقى مطالباً، ولتبقى غاية الشعر الخاصة هي الشعر.

كان هذا المؤسِّسُ الأكبر يزوِّدنا إبداعياً بما يؤَرِّقُ الحدس ويضيئُه، كيف يكون الشعر فعلاً، بتفجير طاقته المشعّة على خلق شعائره الخاصة، وإطلاق الحلم إلى حريته الأقصى، انسجاماً مع توق الإنسان إلى تجاوز كل ما يعيق إنسانيته من ناحية، وكيف تحرر هذه الرؤيا ذاتها ـ بتحرير أدوات التعبير عن ذاتها ـ من فتنة التراث الشعري من ناحية أخرى. أي كيف تدرج مسألة الشكل، واللغة، والعروض في سياق هذه الرؤيا.

جائنا صوت السيّاب الفردي، وقد اكتملت فيه العلاقات بين رموزه الشخصية وأسماء مكانه الخاص وبين عناصر أسطورته الجماعية التي وجدت مدارها في حركة الزمن العربي وعلى ما يعتمل في باطن الواقع وظاهره من صراع. وقرأنا فيه نص الفضاء الذي كشف عنه السيّاب أمام حركة القصيدة العربية الحديثة، وقد تأسست لا في الكتابة وحدها، بل في القراءة أيضاً:

فقد استطاعت قصيدة السيّاب، أكثر من سواها، ترسيخ شرعيِّة الشعر الحديث في ذائقة القارئ وفي وعيه الثقافي، باستجابتها إلى شروط تجديد لا تسبب الاغتراب ولا القطيعة مع تاريخها.

إنها قصيدة قادمة من قدرة اللغة على تجديد حيويتها وحركتها، وعلى التذكير بذاكرتها المشعَّة بجماليات عربية لا تَنْتَهِكُ، كما يشيع البعض، متطلبات الحداثة. إنها قصيدة تتمثل بروح الزمن الجديد بفتح بنيتها على إيقاعه، وبقدرتها على بناء أسطورتها المعاصرة، من ذاتها، لا بالاعتماد الدائم على رموز أسطورية قادمة من خارجها، وبتطوير إمكانات التفعيلة بمرونة لا توقظ الرتابة ولا تستغني عن ضرورة المتعة، وبرؤيا حديثة لا تحتاج إلى افتعال خصوم بين طرفي الفعل الشعري: الفاعلية والجمالية.

لقد أسهم شعراء كثيرون، قبل السيّاب ومعه وبعده، في إنجاز عملية التحويل التدريجي والتراكمي التي أدت إلى ما وصل إليه المشروع الشعري العربي الحديث، وإلى انفتاح القصيدة العربية على امكانات تطور لا حدود لها، ولكن، لعلنا ما زلنا قادرين على المجاهرة بأن لبدر شاكر السيّاب ذي الموهبة الجارفة والقلق المعرفي، الدور

الإبداعي الأبرز في تحقيق الطفرة. إذْ، لا يعنينا من عملية التأسيس أيُّ جدول زمني، من كتب التفعيلة قبل الآخر؟ بقدر ما يعنينا تحقيق التأسيس في الإنجاز الإبداعي.

ولعلنا قادرون على القول أيضاً إن مرحلة الازدهار السيّابي، القصيرة زمنياً، ما زالت تحمل القسمات الأساسية لحركة الشعر الحديث في تطورها اللولبي. وأنَّ البذور التي تركها السيّاب في حقل التجربة الشعرية العربية ما زالت تنبت في هذا الحقل الواسع، وما زال مطر السيّاب يتساقط على جفاف أيامنا. لا لأننا مازلنا نقرأ في شعره لحظة تأزمنا التاريخية، بمستوياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وتردُّدَها أمام حيرة الاختبارات فحسب، بل لأن المرحلة الانتقالية الواسعة التي يمثّلها السيّاب بين ماضي الشعر العربي وبين مستقبله ما زالت مفتوحة أيضاً للمزيد من الأسئلة. وما زلنا نقرأ فيها أيضاً مناطق الاضطراب الشعري التي تتميز به حركة الأنهار العنيفة، كأن تضطرب العلاقات التبادلية بين عناصر القصيدة وكأن يفيض الشعر عن حدود القصيدة، وكأن تفتك الأسطورة المستعارة بحركة نمو القصيدة، وكأن يستبدُّ الحنين القديم بالقافية فتدور على نفسها، وغيرها من الظواهر التي تتسم بها البدايات الكبرى عادةً، ولكنها أسئلة ما زال السيّاب قادراً على إيقاظها فينا.

لم أتعرَّف على السيّاب، فليس في وُسْعِ جميع الأبناء أن يتعرّفوا على آبائهم الشعريين الشرعيين ـ وهذا حسن ربما. بيد أن صورة هذا الصوت القلق، الحزين، المريض، ابن بويب وخالقه. ابن جيكور ومؤسسها، ابن العراق وجرحه، ابن تاريخ الشعر العربي ومحوِّل مجراه، هي أحد أسماء مرآتنا، التي تعكس حنيننا الجارف إلى وضع رموزنا الشخصية في مكانها من نظام الكون، على أرض الأسطورة المهددة بالسقوط، لنقنع أنفسنا مرة أخرى بجدوى هذا العبث الجميل، وبأن الشعر ما زال ضرورياً ومازال ممكناً، ولنجدد إقامتنا على الأرض: أرض اللغة، ولغة الحلم.

بدر شاكر السيّاب.. انطباعات رفيق

سعدي يوسف

في نهايات ١٩٦٣، وكنت خرجت للتوِّ، من السجن، بل السجنين: سجن نقرة السلمان الصحراوي، ثمّ سجن بعقوبة، ذهبت إلى مستشفى الميناء، بالبصرة، حيث يرقد بدر شاكر السيّاب، بعد عودته الخائبة طبيّاً من المملكة المتحدة.

سألتُ عن غرفته، فأشاروا إلى أحد الممرات، مبيِّنين أنها في نهايته. منذ خطوتي الأولى في الممر المقصود، شممت الرائحة: رائحة تعفُّنٍ وصديدٍ ولحمٍ فاسدٍ. لم تكن كرائحة المستشفيات، مختلط مطهِّراتٍ وأدويةٍ وهواءٍ حبيسٍ.

كانت رائحة قبر قديم.

حين دخلتُ الغرفة، كان بدر ممدداً، نصفُهُ الأسفلُ عارٍ تماماً. عيناه الضيقتان عادة، المنحرفتان قليلاً كعينين مغوليّتين، كانتا وحدهما تلتهمان الحياة، متّسعتين كما لم أعهدهما البتة، طوال علاقتي ببدر.

في الغرفة كانت خالتي آسيةُ:

... وآسيةُ الجميلة كحَّلَ الأحداق منها الوجد والسهر.

آسيةُ، صديقة أمي.

تركتْ لي آسية الكرسي الوحيد، حيث كانت جالسة لصق السرير.

سلَّمت. ابتسم ابتسامة عريضة.

قال لي: أين كنتَ ؟

أجبتُ: في السجن.

سأل: ولماذا سجنوك ؟ أنت لم تحمل سلاحاً ضد أحد...

قلتُ: إنها أيامٌ مضطربة.

قال: وماذا ستفعل الآن ؟

أجبتُ: سأرحل...

قدَّمتُ له كتاباً باللغة الإنكليزية يضمّ مختارات من شعراء انجلترا الجدد.

قال: هذه أجمل هدية تلقيتها منذ دخولي هذا المستشفى.

قلبْتهُ آسيةُ، بصعوبة، إلى جنبه. كان لا يطيق حراكاً، والبقاء في وضع تمددٍ واحد يسبب له قروحاً.

نقلت الكرسي إلى الجهة الأخرى المواجهة.

قال مشيراً إلى نصفه الأسفل العاري: عظامي تتآكل. من سوء حظي أن تولّى علاجي في مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت طبيبٌ دجال.

زرته ثانية في المستشفى.

كانت حاله تسوء

ودّعته. قلت له إنني راحل في فترة أسبوع.

أين صورة بدر الأولى ؟

أيُّ صورةٍ منه ظلت تحتفظ ببهائها لديَّ ؟

إن كان ثمّة مشهدٌ أول من بدر يظل عصياً على النسيان، فهو المشهد الذي التقيت فيه بدراً قبل حوالي نصف القرن، في العام ١٩٤٩ تحديداً. كنت طالباً في ثانوية البصرة، قبل أن تفتح مدرسة ثانوية في أبي الخصيب. أيامها كانت الأحكام العسكرية معلنة، والقمع في عنفوانه. أعدم شنقاً، الرفيق فهد، السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي، وطالت حملة الاعتقالات الواسعة كلَّ الجهاز القيادي للحزب.

لكنْ، بعد فترة غير طويلة، بدأت المساعي الأولى لإعادة تنظيم الحزب. لم أكن عضواً في الحزب. كنت في تنظيم للطلبة مرتبط بالحزب. وكنا نحاول، أفراداً، عمل ما نستطيع. نكتب صحفاً سرية كما نشاء. نسمِّيها كما نشاء. ونوزِّع منها ما استنسخناه على ورق الكربون الأزرق.

مضى زمن التظاهرات، والرايات الحمر الخفّاقة في الساحة.

إننا في زمن صعب لم نكن لنقدِّر صعوبته ونحن في اندفاعنا الأول.

في أحد الأيام، تلقّيتُ نبأً عن موعدٍ حزبيّ.

الوقت: بعد الظهر.

المكان: بعد جسر باب سليمان، بأبي الخصيب.

كلمة السر: نسيتُها...

الشخص: نحيف. بارز الوجنتين. يرتدي دشداشة مخططة، ويمسك بيده كتاباً. هكذا، ذهبت إلى الموعد السري.

أول موعد سريّ...

وكان بدر شاكر السيّاب هناك، مكلَّفَاً بإعادة ارتباطي.

بين ١٩٤٩ و ١٩٦٤، تعرجت الخطوط، وافترقت المسالك، في سنوات مضطربة وضعت أساس الاضطراب المستمر، العميق، الذي ظلَّ يعصف بالعراق، ويُعيق تطوره، حتّى الآن.

وفي تلك السنوات، لحق بدراً نصيبه من الاضطراب المألوف: الفصل، والهجرة، والعَوَز.

ولحقه أيضاً، نصيبه من الاضطراب غير المألوف، فارتدى سترةً أخرى، منحها الاعتزاز ذاته الذي حظي به اختياره الأول.

إلاَّ أنَّ الشعر، في الحالتين، ظلَّ بمنأى، إلى حد كبير عن متطلبات عادية للسجال السياسي اليومي.

إن قصائد السجال السياسي اليومي، التي برزت في فترة السترة الأخرى بخاصة، يمكن حذفها ببساطة من ملكوت بدر الفني. وبالإمكان القول، بلا تردد، إن سلسلة مقالات « كنت شيوعياً » هي نثر رديء، حتّى بمقياس نثر بدر.

أقول إن الشعر، في الحالتين، ظل بمنأى، إلى حد كبير، عن المتطلبات العادية للسجال السياسي اليومي. فالفترة الأولى أطلعت «أنشودة المطر» و «غريب على

الخليج» و «الأسلحة والأطفال» مثلاً. والفترة الثانية أطلعت قصائد بُويب، و «المسيح بعد الصلب » و «أغنية في شهر آب»، على سبيل المثال أيضاً.

لقد رأى بدر وهو الانتقائي، أن الشعر في الحياة مستبعد، فاختار الحياة في الشعر.

إن دورة الساعات الأربع والعشرين في يوم بدر، هي دورة عادية جداً، تافهة في الغالب. مقاهي الشاي القذرة المكتظة، وحانات العراك، والعمل اليومي الرتيب في أوساط لا علاقة لها بالفن والإبداع، والتوتر غير المجدي لأطراف سياسية متناحرة، والمجتمع المتوزع على قلعتين موصدتين: الذكور والإناث، ثمّ تلك الغِلظةُ الفاقعةُ التي تسم، أو تصم، العامل اليومي في العراق، بخلاف ما نعهده في بلدان مثل مصر ولبنان وتونس.

هكذا كان على بدر أن يقيم مملكته العجيبة، البعيدة، المنقطعة عن الدورة الملعونة للساعات الأربع والعشرين، وهي مملكة من أنهار ونخيل ومعابد وشرفات، يتجول فيها طفل واسع العينين، متضخم حساسية الأذنين، مملكة لا تأخذ من الطبيعة المكتنزة إلاَّ تلك العناصر التي تجعلنا نلمس الأسطورة التي شيَّدها، متمهلاً لاهياً بمعادلاتها ومشكلاتها، متناسياً، في عمْدٍ مدروس، ما حوله من تفاهة اليوم وغِلْظَتِهِ.

ارتور رامبو ١٨٥٤ — ١٨٩١

بدر شاكر السيّاب ١٩٢٦ — ١٩٦٤

مصادفة الموت المبكر، في السن ذاتها، ليست وحدها التي جعلتني أمضي في طريق التماثلات بين بدر ورامبو.

إنَّ بين قدِّيس جيكور، وأمير الأردين الأشم، الأمير ـ الشمسي، أكثر من وشيجة وآصرة.

كلاهما جاء من المزرعة إلى الحاضرة.

بدر من بستان على ضفة بويب.

ورامبو من مزرعة روش.

وكلاهما كان مسلحاً بوعي متقدّم على الحاضرة.

كلاهما خط في الشعر حد السكين، بحيث لا يمكن أن يشار إلى تطور الشعر في أرض العرب وبلاد الغال، إلاَّ بـ « قبلُ » و « بعد »، إذ هما كبُرجي حدودٍ.

كلاهما افتقد حنان الأم: بدر بموت أمه المبكر، ورامبو بتلك الأم القاسية التي « قفز من حقويها مثل ترس ساعة ضائع» ـ بتعبير هنري ميللر.

كلاهما كانت حياته نصفين.

كلاهما عرف المنفى، اختياراً أو إرغاماً.

كلاهما وقف وراء متاريس الكومونة.

كلاهما قضى في مستشفى التهمت فيه الغنغرينا الجسد المنهك.

وكلاهما مشى في جنازته اثنان، حسب...

التماثلات كثيرة.

وأنا لستُ في معرض تقصِّيها، تفصيلاً، تفصيلاً، إلاَّ أنني أجد ضرورة في إبداء رأي يتعلق بالتماثل بين بدر ورامبو في مسألة اللغة والتعبير.

فالاثنان متفقهان في اللغة، ممسكان بأسرارها وأغوارها، ولقد حفظا للغة بهائها، لكنهما وضعا تلك الأسرار والأغوار، وهذا البهاء، في خدمة تعبير جديد، صادم وصارم إلى حد واضح، حتّى لقد اعتبرناهما، في وقت قصير مقايسة، كلاسيكيين، أي ثروة إنسانية دائمة.

إن عمق كلاسيكية الاثنين الجدلي كان نقطة الوثوب إلى الثورة.

والآن....

بعد ثلاثين عاماً من رحيل بدر، ماذا بمقدور المرء أن يقول ؟

هل نُلحق بدراً بالذاكرة، الذاكرة التي تنسى ؟

أم نضعه بيننا، نتعلم منه، ونتحاور معه ؟

ليس من خيار، لي، في الأقل.

أتذكر جلسة مع بدر، في مقهى صيفي على كورنيش شط العرب. ثمة سفن خشبية قادمة من الخليج وسواحل إفريقيا، وسفن عابرة محيطات سألت بدراً عن مقطع في قصيدة « أنشودة المطر »:

أصيح بالخليج، يا خليج

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى

كأنه النشيج:

يا خليج

يا واهب المحارِ والردى....

قلتُ له: لمَ حذفت كلمة « اللؤلؤ » بعد « فيرجع الصدى » ؟

كان الجواب غير متوقع.

قال لي: الصدى يرجع الكلمات الأخيرة. الصدى يُرجع المناسب.

في كلمتي « المحار والردى » حروف اللين. كلمة « اللؤلؤ » لا يمكن أن يُرْجِّعها الصدى، ولهذا ينبغي أن تحذف.

إذاً، لأتعلم من بدرٍ. ولأمضِ في التتلمذ على يديه، ولنا أن نحاوره.

لنا أن نقول له كما قيل لشاعرنا القديم:

يا هذا، لقد شَقَقْتَ على نفسك. إن الشعر لأيسر مما تظنُّ.

لكنه لن يأخذ برأينا، وشأنه شأن مستكشفي الممرات، سيقول لنا: وعرٌ هو المرقَى إلى الجُلجلةْ، والصخرُ يا سيزيفُ، ما أثقلَه، سيزيفُ، إنَّ الصخرةَ الآخرون....

التجديدات الحداثية في شعر السيّاب

سلمى الخضراء الجيوسي

ـ في تكريمنا لذكرى بدر شاكر السيّاب نكرّم شاعراً كبيراً أرسى في حياته القصيرة عدداً من أسس الحداثة الشعرية العربية وقاد حركتها، بالمثال الشعري الحيوي الناجح. وسوف أحاول في هذه الدراسة أن أبيّن كيف أن عدداً من أهم العناصر الحداثية التي تمثّلتها الحركة الحداثية العربية مدينة للسيَّاب بوجودها. وأظن أننا نخدم قضية الشعر والحقيقة التاريخية عندما نعود بالظاهرة إلى جذورها الأولى غاضّين النظر عن الحملات الدعائية الواسعة التي قامت في العقدين الماضيين لإرجاع هذه الحركة إلى غير أصولها الحقيقية، متجاوزة أهمية الإنجازات الحداثية التي تمت بمعزل عن البيانات والمعلنات بل بصمت أرستقراطي متعفف عن الادعاء.

إن الحداثة ليست مشروعاً يُخطط له. ولا هي عملية لها بداية واضحة يمكن متابعة مسيرها. إنها وعي فكري روحي فني يدفع إلى التجاوز والتخطي ولا يجيء نتيجة دعوة واعلانات تفسيرية بل نتيجة تغير داخلي في النفس إزاء العالم من جهة ونتيجة توصل الشاعر إلى السيطرة على تقنيات العمل الفني وتثويرها من جهة أخرى. وهي تحدث لمبدع هنا ومبدع هناك سبق معاصريه في تمثل روح الحداثة ومواقفها وجرأتها التقنية. وقد حدثت الحداثة العربية على شكل طفرات، وكانت تبدأ كلما اعتمل في أعماق الفرد وعي صادق بروح العصر الذي يعيش فيه وبعالمية هذه الروح، فيتحرر من الروابط القروسطية التي هيمنت على مواقف كثيرة في الثقافة العربية وشكلت جزءاً حيوياً من مفهومها التقليدي للحياة والسياسة والبطولة والمرأة والتراث، كما يتحرر، على الصعيد التقني من القواعد الشكلية والبنيات الموروثة وعلاقاتها بالزمان والمكان، ومن التعامل التقليدي مع اللغة والصورة والرؤى واللهجة ولاسيما اللهجة بجهوريتها وبلاغتها القديمة وتأكيداتها وقدرتها على التأثير العاطفي في المستمعين العرب، حتّى اليوم.

ثمّ أنَّ من أهم إشارات التحول الحداثي في المبدع أن توجهه يكون انقضاضياً يدعو إلى الهدم ـ غير أن بعض الطامحين عندنا جعلوا من إرادة الهدم مبدأً متكاملاً شمل جميع عالمهم. وقد كان لهذا الموقف التدميري الشامل نتائج شديدة السلبية في الثقافة العربية المعاصرة لا مجال للحديث عنها هنا، لأنَّه سيأخذنا بعيداً عن السيّاب الذي استهدفت ثورته الحداثية البناءَ حيث هدمت وقوضت. وهو موقف أخذه من بعده شاعر كبير آخر هو محمود درويش، والعدد الأكبر من الشعراء الشبان بعدهما.

وبالنسبة إلى تعقيد التحويل الحداثي وضرورة اقتران المغامرة التقنية فيه برؤيا المبدع وموقفه الواعي من أوضاع الحياة جميعها، كان من الصعب أن نلقى تحولاً حداثياً كاملاً عند العدد الأكبر من رواد الحداثة في الخمسينيات والستينيات. إنَّ هذا لا يعني أن الإبداع العربي لم يُرزق أية تجربة حداثية كاملة في تلك الفترة، ولكني أتحدث هنا عن الشعراء الذين تمكنوا من ترسيخ عدد من الأعراف الحداثية في الشعر. فتوفيق صايغ، مثلاً كان شاعراً حداثياً بكل معنى الكلمة، وقد نشر مجموعته الأولى (٣٠ ثلاثون قصيدة) في أوائل الخمسينيات.

ومن قبله كان عندنا اورخان ميسر في سورية، ومن بعد جاء شعراء أمثال محمد الماغوط وأنسي الحاج. إلاَّ أنَّ هؤلاء لم يتمكنوا من إرساء قواعد الحداثة في الشعر العربي الحديث، لأنهم كتبوا شعرهم عن طريق:

إنَّ منطقية القطع مع تقاليد الماضي، وهي أساس في الموقف الحداثي، لا تعني أنَّ كل ما في هذا الماضي كان قبيحاً ومتردياً في زمنه، بل تعني أنَّه لم يعد له مكان في زمننا، ويصبح القطع معه نوعاً من العودة إلى أصالة هويتنا المعاصرة. إنّما إرادة التدمير الكاسح لكل مقومات الماضي وإنجازاته كانت عدواناً كبيراً على تاريخ طويل من الجماليات المتطورة والإبداع الفكري والأدبي.

النثر في زمن كان الشعر العربي لم يزل مرتبطاً، تقنياً ونفسياً بأسلوب النظم. ولذا فلكي تتمكن أية عناصر حداثية من أن تدخل إلى الشعر وتصبح عُرفاً فيه يقتبسه الشعراء الآخرون كان عليها أن تدخل إليه أولاً عن طريق الشعر المنظوم. ولعلها ليست مصادفة أنَّ حركة الشعر الحر زامنت هذه التطلعات الحداثية في

الشعر في الأربعينيات والخمسينيات، فقد كان الشعر العربي يحاول منذ عقود أن يشق طريقه إلى الحداثة وأن يتغلب على مناعة الشكل الموروث أي شكل الشطرين، وهي مناعة ترسخت فيه لأسباب تقنية تحدثت عنها في مناسبات أخرى. ولا بد هنا من التنويه بأنَّ التوصل إلى حل لهذا الرسوخ في شكل الشطرين قد تم على يدي مسرحي شاعر هو على أحمد باكثير بغاية إنجاح الحوار المسرحي أي أنَّه لم يحدث في بدايته لغاية تحرير الشعر نفسه. إلاَّ أنّ الشعر العربي استفاد كثيراً منه، إذ تحول في الخمسينيات إلى حركة شعرية جادة وعن طريقه بدأت العناصر الحداثية في الدخول إلى الشعر والترسخ فيه.

قبل الحديث عن التجربة الحداثية السيَّابية أرجو أن ألفت نظركم إلى أمرين أراهما مهمين في الحداثة العربية: الأول هو أنّ ضرورة اقتران التجربة الفنية التقنية فيها برؤيا متحولة للحياة والإنسان لم تأت في البدء تلقائية ومتكاملة بالضرورة للمبدع. فلوا قابلنا التحول الحداثي بالتحول الرومانسي وجدنا أنّ الرؤيا الرومانسية (ومثلها الكلاسيكية) لا بد أن تعبر عن نفسها عن طريق تقنية رومانسية بارزة: الأسلوب السيّال المنفتح، اللغة العاطفية. لغة الحنين والتشوف والشوق والفرح والحزن، لغة الدهشة والتطلع والصور الغائمة، وبروز العنصر الذاتي العالي، وسيطرة الخيال والعاطفة على القصيدة... الخ.

هذا الالتحام الطبيعي في عناصر الرومانسية لا يقابله التحام مماثل في عناصر الحداثة. وقد برهنت بداية الحداثة العربية عندنا على نوع من التراخي بين التقنية الجمالية وبين الموقف والرؤيا في القصيدة. فقد رأينا في السبعينات عشرات الشعراء العرب الشبان يهجمون بلهفة تكاد تكون طفولية على التجربة التقنية المعقدة في الصورة الشعرية، وهي في أساسها تجربة حداثية متميزة قام بها الشعراء الرواد في الستينيات وعلى رأسهم أدونيس. فيملأون أي جيل السبعينيات مئات القصائد بهذه المغامرة الصورية والمتطرفة التي باعدت بين طرفي التشبيه وقدمت صوراً تركيبية لا علاقة لها بتراثهم المنحدر عن مفهوم الصورة، غير أنّهم تفاعلوا معها بألفة وشغف وإصرار واختراع واع، وكأنها كانت مستقرة في لا وعيهم تنتظر فرصتها للبروز. غير أنّ ما تحوّل في هؤلاء الشعراء، أغلبهم، كان تقنياتهم لا مواقفهم ورؤاهم. فقد

ولدت فيهم مقدرة جديدة على اقتحام مملكة الصور الشعرية والتلاعب بها بشجاعة، كما ولدت فيهم جرأة مدهشة على الإيغال في اختراع لغوي معقد. ومع أنّ محاولاتهم لم تنجح إلاَّ نادراً في عقد السبعينيات فإن جرأتهم البالغة حد الهوس تظل أمراً مدهشاً. لقد كان التحول بالعنصر الجمالي في الشعر نحو تعقيد لم يسبق من قبل أسهل بكثير من تحقيق تحول روحي ونفسي إزاء العالم، فلم يتواز الأمران.

هذا ينقلنا إلى النقطة الثانية التي أود الحديث عنها. إنّه لواضح لدنيا إذ ندرس هذه الفترة أنَّ جيل الرواد ومن جاء بعدهم مباشرة كانوا مستعدين بشكل لم يسبق للدخول في مناطق شعرية لم يدخل إليها الشعر العربي من قبل. كان هذا نتيجة لتراكم المعرفة الفنية التي ورثها هؤلاء الشعراء كجزء من غريزتهم الشعرية. وكانت أدوات الشعر في أواسط القرن ومن بعده قد أصبحت مرنة وقابلة للتفاعل مع التجارب الجديدة، وكان المناخ الشعري قد تبدل، أولاً نتيجة لما أطلقته التجارب السابقة المتلاحقة كالرومانسية والرمزية والسوريالية وتفاعلاتها وتفسيراتها من حساسية جديدة، وثانياً نتيجة للخيبة السياسية الصاعقة بعد النكبة التي أفقدت التقاليد الشعرية الموروثة الكثير من قدسيتها. هذا التسرّب المتلاحق للمعرفة الجمالية، والتحول الخفي في الحساسية الشعرية يفسران لنا مثلاً تجربة محمد الماغوط. فهنا نجد أنّ شاعراً شاباً جاء من بلدة صغيرة وخلفية متواضعة ولم يحصل على شهادة ثانوية ولم يعرف لغات أجنبية استطاع أن يطلع علينا في نهاية الخمسينيات بشعر شديد التآلف مع مواقف وجماليات حداثية غير مألوفة بعد. فقد كان ديوان (حزيران في ضوء القمر ١٩٥٩) انفصالاً كبيراً عن الموروث الشعري، وتغيراً مدهشاً في استعمال الأدوات الشعرية: من لغة طازجة ذات نبض جديد، وصور ساطعة مستمدة من حياة المدينة السورية، وطلاق كامل مع رؤيا الشاعر الرومانسية والقروسطية لنفسه كبطل منقذ، صاحب الكلمات الصاعقة، وكنبي هاد ينظر من الأعالي إلى الشعب المعذب، وهي رؤيا لم يتحرر منها شعراء مهمون أمثال خليل حاوي وأدونيس، لقد كان وجه الماغوط منذ أول كلمة كتبها وجه الضحية الحداثية التي حاصرتها مثالب القرن العشرين وقد امتلأ وعيها بواقع العذاب الذي عليها أن تواجهه وتحاربه كل يوم إزاء شرور الواقع العربي وطغيانه في منتصف

القرن العشرين. وهذا موقف حداثي بامتياز.

ونجيء الآن إلى الإنجازات الحداثية عند السيَّاب. كانت العقبة الكبرى أمام التحول الحداثي العام هو الشكل الشعري الموروث إي شكل الشطرين. كما أسلفت. وقد كان تحرير الشكل مديناً كثيراً لتجربة السيَّاب في هذا المجال. إنني آخر من يود أن يغمط حق نازك الملائكة في مجال هذه التجربة الانقلابية. فهي والسيَّاب فرسا رهان فيها وكانت محاولتهما متزامنة. إلاّ أنَّ الريادة في حديثنا عن أي تجربة لا بد أن تعود إلى الشاعر الذي حوّل التجريب إلى تجديد راسخ وعُرْفٍ شعري يتبعه الآخرون. لقد كان أسلوب نازك ملكها وحدها، عصياً على التقليد، ولم يقترن بمحاولات حداثية واضحة، بينما اهتدى السيَّاب إلى الأسلوب الذي أثّر في عصب جيله وأطلق إبداعاته في هذا المجال ـ ومن خلال تجاربه الناجحة الموحية في أوزان الشعر المختلفة: الكامل، ثمّ الرجز، ثمّ الخبب انطلق الشعر الحر ومكَن للتجربة الحداثية من النجاح العام عبره.

وهذه هي المأثرة الحداثية السيابية الأولى.

وسوف نرى أن السيَّاب في عقد الخمسينات كان هو الشاعر الذي تمّ على يديه تأصيل عددٍ آخر من الأعراف الشعرية الحداثية في الشعر العربي، فهو الرائد الأول الذي أرسى أصول الحداثة عملياً وجعل لها أعرافاً تُحتذى فكان ما أن يبدع تجربة حتّى يأخذها عنه بقية الشعراء.

عندما بدأ السيَّاب يكتب الشعر في الأربعينات كان شعره تقليدياً في موقفه وحساسيته ولغته وأسلوبه، شأنه شأن بقية الشعراء الرواد في أوائل إنتاجهم.

لعل دراسة السيَّاب للأدب الغربي في نماذجه الحداثية. لاسيما شعر اليوت Eliot وأيديث سيتويل Edith Sitwell كانت هي العنصر الحاسم في تغيره باتجاه حداثة شعرية عربية رائدة ـ ولكن هذا التعليل لا يكفي فإن انجذاب السيَّاب وشعراء جيله، بكل تلك الطواعية والسرعة إلى التجربة الشعرية كان يدل أيضاً، كما أسلفت على تخمر المعرفة الشعرية واستعداد اللحظة الشعرية لتقبل هذا التغيير.

وكان الإدخال الحداثي المهم الثاني الذي نجح السيَّاب في ترسيخه هو إدخال

عنصر الأسطورة إلى الشعر. لم تكن فكرة اقتباس الأسطورة إلى الشعر جديدة، فقد حاولها الشعراء من جبران في العقد الثاني من القرن العشرين مروراً بنسيب عريضة وأبي شادي وشفيق المعلوف وعلي محمود طه وسواهم - إلى أنَّ هؤلاء إمّا أنّهم لم يستطيعوا ترسيخ هذا العنصر ليصبح تجديداً مستمراً. وإمّا أنّهم اقتبسوا الأساطير بشكل مسطح خالٍ من الرمز.

أما السيَّاب فقد استعمل أسطورة الخصب والحياة بعد الموت بحذق مرهف في قصيدته المفتاحية « أنشودة المطر » متأثراً بدراسة لقصيدة اليوت الشهيرة « الأرض الخراب ». وكما استعمل اليوت أسطورة الخصب متخفية وراء رموزها استعملها السيَّاب كذلك، فجعل الماء محور القصيدة، ماء الخليج الذي يحمل الموت للمهاجر وماء المطر الذي يجيء بعد زمن القحط واليباب ليبعث الربيع النضر من قلب الشتاء. إشارة إلى إمكان انبعاث الحياة الطيبة بعد زمن الموت والاندحار. وقد نشر هذه القصيدة في مجلة (الأدب) ١٩٥٤ ففتح بها الطريق للسيل المفتعل قليلاً لأساطير الانبعاث المتعددة الأسماء. كان السيَّاب في قصيدته تلك قد أطاع حدس الشاعر الأصيل فلم يذكر أسماء الآلهة القديمة في القصيدة - إلاَّ أنَّ الشعراء من بعده استحضروا في شعرهم ما استطاعوا من الرموز الأسطورية بأسمائها - وكان على القارئ في نهاية الخمسينات أن يدرس هذه الأساطير ودلالاتها حتّى يستطيع فهمها. لأنها لم تكن حية في الذاكرة الشعبية. كما ينص الاستعمال الأسطوري عادة. وحتى بدر نفسه عاد فضمنها قصائد أخرى. وكان استعمالها في ذلك الوقت دليلاً على الأمل الباقي في نفوس الشعراء والمتلقين بإمكان البعث والعودة إلى الكرامة والحياة الحرة. غير أنّها أصبحت زياً، وككل زي في الشعر فإنّها انتهت فجأة في مطلع الستينات وكأن الشعر قد أصابه إرهاق جمالي منها. غير أنّها نجحت في تأسيس الحس الأسطوري في الشعر، وكان إدخال الأسطورة الرمزية بنجاح إلى الشعر إنجازاً حداثياً مهماً يدين إلى السيَّاب بوجوده الأساسي ومن بعده توطد العنصر الأسطوري ووجد له تعبيراً قوياً عن طريق استعمال الزمن الأسطوري والنماذج العليا. وفي هذا التجديد الآخر كان السيَّاب هو الرائد الأول.

ففي ١٩٥٦ نشر السيَّاب في (الآداب) أيضاً قصيدته الشهيرة « في المغرب العربي

» محتفياً فيها بالثورة الجزائرية التي كانت مشتعلة وقتئذ. كان نفس موضوع البحث والتجدد يهيمن عليها وكانت تتضمّن رموزاً من النماذج archethpes العليا المأخوذة من التاريخ العربي الإسلامي الحي في الذاكرة الشعبية: النبي محمد (ص)، وجماعة الصحابة والأنصار الذين بشروا بفجر الحضارة العربية. غير أنَّ عظمة هذه الحضارة انهارت بسبب الضعف الداخلي وموت المقاومة والبسالة، وعندها فإن اللّه حجب وجوده عن الناس وماتت فيهم حرارة الإيمان ليعود اللّه والنبي (ص) وجماعة المؤمنين الأول إلى الحياة من جديد بفضل الثورة الجزائرية.

إنَّ قصيدة المغرب العربي قصيدة معقدة شديدة التأثير، وقد أعطت مثالاً أولاً ناجحاً لاستعمال الزمن الأسطوري في الشعر، ولقُدرة الحدث على تكرار نفسه في تاريخ الأمة، وقدرة الشخصية التاريخية الحية في ذاكرة الأمة على أن تُستلْهَمَ من جديد لتعطي المعنى لما يحدث الآن وتُولّدَ شعوراً قوياً بالوحدة وبالإرث الروحي المشترك.

وقد كان حظ الشعر العربي أنّ المثال الأول على هذا الاستعمال الحداثي الرفيع مثّلته قصيدة عامرة من أجود الشعر الحديث. فقد كثرت بعدها نماذج الشعر التي استعملت الزمن الأسطوري لتدل على استمرارية تاريخية في الأمة، كما استعملت النماذج العليا المأخوذة من التاريخ العربي لتشير إلى قدرة هذه النماذج على أن تكرر نفسها في تاريخ الأمة العربية.

غير أنَّ عدداً وافراً من هذه الرموز التاريخية اختير لسلبيته، ليكون هجاءً لاذعاً للوضع العام، لاسيما بعد نكسة ١٩٦٧. لكن رغم المبالغة في تأويل بعض الأمثلة إلاَّ أنَّ سيطرة الشاعر العربي على هذين العنصرين أصبحت سلاحاً شعرياً راقياً للتعبير الموارب عن قضايا وجودية وتاريخية كبيرة - ولا شك أن اقتباس هذين العنصرين كان مكْسباً كبيراً للشعر العربي، يعود في أساسه إلى التجربة السيَّابية - وهي المأثرة الحداثية الثالثة للسيَّاب.

ومأثرته الرابعة هي أنّه كان رائداً بارزاً في استعماله لموضوع « المدينة » وكان معه آخرون. إنَّ المدينة رمز حداثي أصيل في الحداثة الغربية فقد ولدت الحداثة الغربية في زمن اكتساح التصنيع للحياة في الغرب، والصناعة تنشأ في المدن والأدب

الذي نجم عن هذه الفترة في الغرب كان أدباً هجرت فيه الطبيعة وأصبحت أبعاد المكان أبعاداً مدنية. فكان الشاعر الحداثي يرى المدينة غولاً ومركزاً للفساد والظلم والجريمة فوصفها سلبياً كصحراء مكتظة متحجرة مليئة بالأسى والضجر.

أما المدينة السيَّابية فهي مكان الغربة الذي وجد فيه الشاعر الريفي نفسه بعد صفاء جيكور. وقد رآها سجناً مسوّراً وبؤرةً للمؤسسات الطغيانية بقوتها البوليسية الغشيمة وبجيش المخبرين الذي ترعاه. وهي أيضاً مسكن آلاف الفقراء والمنبوذين الذين كانوا يعيشون على هامشها ويعانون الظلم الذي تفرضه على ضحاياها. ولا شك أنَّ اعتناق السيَّاب للماركسية في ذلك الوقت المبكر من حياته جعله أقوى إحساساً بالمظالم التي كان يعاني منها فقراء المدينة وبغاياها والمنبوذون الضائعون فيها ـ فأرسى موضوع المدينة في الشعر العربي كرمز بالغ الرهافة.

ومن أعماق عذابه الشخصي كريفي جاء المدينة ساعياً وراء العلم والرزق، يرى السيَّاب نفسه ضائعاً، مليئاً بالغربة، ضحية لعنف المدينة ولا مبالاتها، ومن جديد يبرز وجه الشاعر الحداثي في مأثرة السيَّاب الحداثية الخامسة ـ وهي مأثرة تتناول المواقف لا التقنية في الشعر الحداثي، موقفه من العالم ورؤياه لنفسه. فهو ليس البطل القائد الممتلئ بإرادة الإنذار والتبشير، الذي يرى نفسه ينظر من الخارج إلى بؤرة العذاب والمعاناة ويدل على منابع الفساد والانهيار في عالم الآخرين، بل هو ضحية مثلهم، وجزء لا يتجزأ من العالم الذي يرفضه. موقف حداثي بامتياز.

ترى ما هي الأبعاد الشعرية التي كان سيصل إليها السيَّاب لو لم يهاجمه المرض وهو بعد في أوج تفوقه الإبداعي. إنّي أشعر إذ أتحدث عنها بأني أتحدث عن مشروع لم يكتمل وبأن الحكم على إنجازاته حكم منقوص لأننا لا نعرف كيف كان شعره سيتجه بعد ديوان « أنشودة المطر » لو لم يضطر إلى الاستسلام إلى المرض والذكريات والتشوفات الشخصية.

غير أن ما تعرفه هو أنّه كان شاعراً ورائداً كبيراً كسب الشعر العربي بوجوده مكسباً لا حدود له وخسر بموته خسارة لا تعوض.

بدر شاكر السيّاب

مختارات شعرية

أقداح وأحلام

أنـــا مـــا أزال وفي يـــدي قـــدحي

يـــا ليـــلُ، أيـــنَ تفـــرّقَ الـــشّرْبُ

مازلـــــت أشـــــربها وأشـــــربها

حتّـــــى تـــــرّنح أفقـــــك الرّحْـــــبُ

الـــــشرق عُفّـــــر بالـــــضبابِ فمـــــا

يبـــدو، فـــأين ســـناك يـــا غـــربُ ؟

مـــا للنجـــومِ غـــرْقنَ، مـــن ســـأمٍ،

في ضـــوئهن، كـــادت الـــشّهْبُ ؟

الحـــــانُ بالـــــشهوات مـــــصطخبٌ

حتّـــــى يكـــــادُ بهـــــنّ ينهـــــارُ

وكـــــأنَّ مـــــصباحَيه مـــــن ضَـــــرَجٍ

كفَّـــــانِ مـــــدّهما لـــــي العـــــارُ

كفّـــــان ؟! بـــــل ثغـــــران قـــــد صُـــــبغا

بـــــدمٍ تـــــدّفق منـــــه تيـــــارُ

كأســـــان ملؤهمـــــا طلـــــىً عُـــــصرت

مـــــن مهجـــــتين رماهمـــــا الحـــــبُّ

أو مخلبـــــان عليهمـــــا مِـــــزَقٌ

حمـــــراءُ تـــــزعم أنهـــــا قلـــــبُ

يــــا ليـــل، أيـــن تطـــوف بـــي قـــدمي ؟

في أيِّ مُنعطـــــفٍ مـــــن الظُلَـــــمِ ؟

تلـــــك الطريــــقُ أكـــــاد أعرفهـــــا،

بـــــالأمس عـــــتّمَ طيفهـــــا حُلُمـــــي

هـــي غِمـــدُ خنجـــركَ الرهيـــب، وقـــد

جرّدْتـــــه ومـــــسحتَ عنـــــه دمـــــي

تلـــــك الطريــــق علــــى جوانبهـــــا

تتمــــــزق الخطــــــوات أو تكبــــــو

تتثـــــاءب الأجــــــسادُ جائعــــــةً

فيهـــــا، كمـــــا يتثـــــاءب الـــــذئب

حـــــسناءُ يُلــــهب عُريُهـــــا ظمـــأي

فأكـــــاد أشــــرب ذلــــك العُرْيـــــا

وأكـــــاد أحطمـــــه، فــــتحطمني

عينـــــان جائعتـــــان، كالـــــدنيا

غرســــتْ يـــد الحمـــى علـــى فمهـــا

زهـــراً بـــلا شـــجرٍ فـــلا سَـــقيا !

إنْ فتّحتـــــه بحرّهـــــا شـــــفةٌ

ظمـــــأى يُعربـــــد فوقهـــــا نَـــدْبُ

رقـــصَ المهيـــبُ علـــى كمائمـــه

ومـــــشى الطّـــلاءُ يهـــزُّه الوَثـــبُ

عَينٌ يرّنح هُدْبَها نفسي

وفمٌ يقطع هَمسَهُ الداءُ

ويدٌ على كتفي مُجلجلةٌ

واخجلتاه ! أتلك حوّاءُ !

لا كنتُ آدمها ولا لفحت

فردوسي الخمريّ صحراءُ !

إنْ فتّحته بحرّها شفةٌ

ظمأى يُعربد فوقها نَدْبُ

صوت النُّعاس يرنّ في أفُقي

فتذوبُ، ناعسةً، له السُّحبُ

وأنثال، من سَهري على سَهري

يُنبوعُه المتثائبُ الرّطبُ

يــــا نـــــومُ بـــــين جـــــوانحي أمـــــلُ

لم أدرِ، قَبلـــــــــكَ أنَّـــــــــهُ أمـــــــــلُ

مثـــــلُ الفراشـــــةِ بـــــات يحبـــــسُها

دوحٌ بـــــــذائب طلِّـــــــه خَـــــــضِلُ

لـــــولا خفـــــوقُ جناحهـــــا، غفلـــــتْ

بـــــيض الأزاهـــــر عنـــــه والمقَـــــلُ

أنـــــا مـــــن ظلالـــــكَ بـــــين أوديـــــةٍ

عـــــذراءَ، كـــــلُّ مهادهـــــا عُـــــشْبُ

هـــــام الـــــضبابُ علـــــى رفارفهـــــا

طـــــلَّ الوشـــــاح.. كنجمـــــة نخبـــــو

مـــــاذا أراه ؟! أطيفُهـــــا مــــــسحتْ

عنـــــه الــــترابَ أنامــــلُ الغَـــسَقِ ؟

هــــو يــــا فــــؤادي غَيرُهـــا رِفـــةً،

هــو مـــن دمائـــك أنـــت، مـــن حُرقـــي !

هــــو مــــا نحِـــنُّ إليــــه بــــادلني

حُبِّــــي وفـــــتّح بالــــسّنا أفُقـــــي

فــــإذا لثمـــــتُ فغـــــيرَ خادعــــةٍ

باتـــــت لكُـــــلِ مخــــادع تـــــصبو

أفكـــــان سُـــــوراً قـــــام بينهمــــا

بـــين الخيانـــة والهـــوى هُـــدْب ؟

خفقــــتْ ذوائبُهـــــا علــــى شَــــفتي

وســــنى فأســــكَر عطرُهـــــا نفـــــسي

نهـــــرٌ مــــــن الأطيـــــاب أرشــــفني

ريحـــــاً تُريــــب مجــــامرَ الغَلَـــــسِ

فكـــــأن نايـــــاً ضــــمَّخته يـــــدا

آذارَ، غَــــــرّدَ ليلــــــةَ العُـــــــرُسِ

فغفـــــا، ومـــــا زالـــــت ملاحنــــــه

مــــلء الفــــضاء يعيــــدها الحــــب

أو أنَّ سوســــــــــنةً يُراقـــــــــصها

رَجْـــــعُ الغنـــــاء، بــــشَعرها تربــــو

يـــا جِـــسمَ طَيفـــكِ، أنـــتِ، يـــا شـــبحاً

مـــن ذكريـــاتي يـــا هـــوىً خَـــدَعا

لعنـــاتي الحنِقـــات مـــا برحـــتْ

تعتـــاد خِـــدركِ والظـــلامَ معـــاً

خفقـــتْ بأجنحـــة الغُـــراب علـــى

عينَيـــكِ تنـــشر حولـــك الفَزَعـــا

الـــصُّبحُ، صُـــبحك، ضـــحك شـــامتةٍ

والليـــل، ليلـــك، مـــضجعٌ ينبـــو

وإذا هلكـــتِ غـــداً، فـــلا تجـــدي

قـــبراً، ومـــزّق صـــدرك الـــذئبُ ؟

والبـــــومُ يمـــــلأ عُـــــشّه نُتَفـــــاً

مـــــن شـــــعرك المتعفّـــــر النخِـــــرِ

ويعـــــود ثغـــــركِ للـــــذباب لقـــــىً

ويـــــداك مُثقَلتـــــان بـــــالحجز

لا تـــــدفعان أذاه عـــــن شـــــفةٍ

بـــــالأمس أخـــــرس لعوُهـــــا وتـــــري

وليُـــــسقَ مـــــن دمـــــك الخبيـــــث غـــــداً

دَوحٌ تعـــــشّش فوقـــــه الغُـــــرْبُ

تـــــأوي الـــــصلال إلى جوانبـــــه

غرثـــــى، ويعـــــوي تحتـــــه الكلـــــبُ !

١٩٤٦/١٢/١٤

رئة تتمزق

الداءُ يثلج راحتي، ويطفئ الغد.. في خيالي

ويشلّ أنفاسي، ويطلقها كأنفاس الذبال

تهتز في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال

مشدودتين إلى ظلام القبر بالدم والسعال..

واحسرتاه !؟ كذا أموت ؟ كما يجف ندى الصباح ؟

ما كاد يلمع بين أفواف الزنابق والأقاحي،

فتضوع أنفاس الربيع تهزُ أفياء الدوالي،

حتّى تلاشى في الهواء.. كأنه خفق الجناح !

كم ليلة ناديت باسمك أيها الموت الرهيبُ

وودت لا طلع الشروق علي إن مال الغروب

بالأمس كنت أرى دجاك أحب من خفقات آل

راقصن آمال الظماء.. فبلها الدم واللهيب !

بالأمس كنت أصيح: خذني في الظلام إلى ذراعك

واعبر بي الاحقاب يطويهن ظل من شراعك

خذني إلى كهف تهوم حوله ريح الشمال..

نام الزمان على الزمان، به، وذابا في شعاعك.

كاد الهوى وهماً يعذبني الحنين إلى لقائه

ساءلت عنه الأمنيات، وبت أحلم بارتمائه

زهراً ونوراً في فراغ من شكاة وابتهال..

في ظلمة بين الأضالع تشرئب إلى ضيائه

واليوم حببت الحياة إليّ، وابتسم الزمان

في ثغرها، وطفا على أهدابها الغد والحنان..

سمراء.. تلتفت النخيل الساهمات إلى الرمال

في لونها.. وتفر ورقاء.. ويأرج أقحوان..

شع الهوى في ناظريها.. فاحتواني واحتواها

وارتاح صدري، وهو يخفق باللحون، على شذاها

فغفوت استرق الرؤى والشاعرية من رؤاها

وأغيب في الدفء المعطر.. كالغمامة في نداها

عينان سوداوان أصفى من أماسي اللقاء،

وأحب من نجم الصباح إلى المراعي والرعاء،

تتلألأن عن الرجاء كليلة تخفي دجاها

فجراً يلون بالندى، درب الربيع، وبالضياء

سمراء يا نجماً تألق في مسائي... أبغضني

واقسي عليّ.. ولا ترقي للشكاة وعذبيني

خلي احتقارا في العيون، وقطبي تلك الشفاها

فالداء في صدري تحفز لافتراسك في عيوني !

يا موت.. يا رب المخاوف، والدياميس الضريرة

اليوم تأتي !؟ من دعاك ؟ ومن أراد أن تزوره ؟

أنا ما دعوتك أيها القاسي فتحرمني هواها

دعني أعيش على ابتسامتها وإن كانت قصيرة

لا ! سوف أحيى، سوف أشقى، سوف تمهلني طويلاً

لن تطفئ المصباح.. لكن سوف تحرقه فتيلا

في ليلة.. في ليلتين.. سيلتقي آها فآها

حتّى يفيض سنى النهار فيغرق النور الضئيلا !!

يا للنهاية حين تسدل هذه الرئة الأكيل

بين السعال، على الدماء، فيختم الفصل الطويل

والحفرة السوداء تفغر، بانطفاء النور، فاها..

إني أخاف.. أخاف من شبح تخبّئه الفصول !!

وعداً إذا ارتجف الشتاء على ابتسامات الربيع

وانحل كالظل الهزيل وذاب كاللحن السريع

وتفتحت بين السنابلِ ـ وهي تحلم بالقطيع

والناي ـ زنبقة، مددت يدي إليها في خشوع

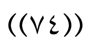
وهويت أنشقها فتصعد كلما صعد العبير،

من صدري المهدوم حشرجة فتحترق العطور

تحت الشفاه الراعشات ويطفأ الحقل النضير

شيئاً فشيئاً.. في عيوني ثمّ ينفلت الأسير

١٩٤٨



عبير

عطرت أحلامي بهذا الشذى

من شعرك المسترسل الأسود

الجو من حولي، ربيع حبا

من خدره النائي إلى الموعد

هذا عبير الحب فجرته

يبحث عن مجرى له في غد

نبع أثيري الخطى، حالم

بالظلمة الخضراء والمسند

والعاشـــق الـــسكران يحـــصي علـــى

ثغـــرك مـــا في الليـــل مـــن فرقـــد

أوقـــدت مـــصباح الهـــوى بعـــدما

خبـــا، ولـــولا أنـــت لم يوقـــد

هبـــت عليـــه الـــريح مجنونـــة

محلولـــة، الـــشعر، خـــضيب اليـــد

الزيـــت مـــن هـــذا الـــشذى واللظـــى

مـــن قبلـــة في الغيـــب لم تولـــد

تطفـــو علـــى العطـــر خيـــالاً فـــلا

ترســـب إلاَّ في الفـــؤاد الـــصدي

أهـــمّ أن أهتـــف: أنـــتِ الـــتي

مثلتهـــا في أمـــسي الأبعـــد

وأنـــتِ مـــن تحلـــم روحـــي بهـــا

علـــى ضـــفاف الزمـــان المزبـــد

تـــسائل المـــوج وتـــومي إلى

كـــل شـــراع علّهـــا تهتـــدي

أهـــم أن أهتـــف لـــولا خطـــى

عـــابرة في الخـــاطر المجهـــد

أطيـــاف حـــسناواتي اســـتيقظت

هاتفـــة: يـــا ذكريـــات اشـــهدي

مـــا نـــال منـــا غـــير أسمائنـــا

تـــسخر مـــن آمالـــه الـــشرد

مكتوبـــة بالنـــار في شـــعره

كالـــصورة الخرســـاء في معبـــدِ

١٩٤٧/١٠/٢١



في السُوق القديم

الليلُ، والسوقُ القديم

خفتت به الأصواتُ إلاّ غمغمات العابرينْ

وخطا الغريبِ وما تبثُ من نغم حزين

في ذلك الليل البهيم.

الليلُ، والسوقُ القديم، وغمغمات العابرينْ

والنور مقصده المصابيح الحزانى في شحوب

- مثل الضبابِ على الطريق -

من كلِّ حانوتٍ عتيق

بين الوجوه الشاحبات، كأَنَّه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم

كم طاف قبلي من غريب

في ذلك السوق الكئيب

فراى وأغمضْ مقلتيه، وغاب في الليل البهيم

وارتجَّ في حلَق الدخانِ خيالُ نافذةٍ تضاء

والريحُ تعبث بالدخان

الريحُ تعبث في فتور واكتئاب بالدخان

وصدى غناء

ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل

وأنا الغريب... أظل أسمعه وأحلم بالرحيل

في ذلك السوق القديم

وتناثر الضوءُ الضئيلُ على البضائع كالغبار

يرمي الظلال على الظلال، كأَنّها اللحن الرتيب

ويرُيق ألوان المغيب الباردات على الجدار

بين الرفوف الرازحات كأَنّها سحبُ المغيب

الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه

ويدٍ تلوّنها الظهيرة والسراجُ أو النجوم

ولربما بَردَتْ عليه وحشرجتْ فيه الحياة

في ليلةٍ ظلماء باردة الكواكب والرياح

في مخدع سهر السراجُ به، وأطفأَه الصباح

ورأيتُ من خلل الدخان مشاهد الغد كالظلال

تلك المناديل الحيارى وهي تومئ بالوداع

أو تشرب الدمع الثقيل، وما تزال

تطفو وترسب في خيالي - هوَّمَ العطرُ المضاع

فيها، وخضبها الدمُ الجاري !

لونُ الدُجى وتوقّدُ النار

يجلو الأريكةَ ثمّ تخفيها الظلالُ الراعشاتْ

وجه أضاء شحوبَهُ اللهبُ

يخبو ويسطع، ثمّ يحتجْبُ

ودمٌ يغمغم وهو يقطر ثمّ يقطر: مات... ماتْ !

الليلُ والسوقُ القديم، وغمغماتُ العابرين

وخطا الغريب

وأنتِ أيتها الشموعُ ستوقدين

في المخدع المجهول، في الليل الذي لن تعرفيه

تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل أمساءِ الخريفْ

- حقلٌ تموجُ به السنابل تحت أضواءِ الغروب

تتجمع الغربانُ فيه -

تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل أوراق الخريفْ

في ليلةٍ قمراء سكرى بالأغاني، في الجنوب:

نقر [الدُّرابك] من بعيد

يتهامسُ السعفُ الثقيلُ به ويصمتُ من جديد !

قد كان قلبي مثلَكن، وكان يحلم باللهيب

حتّى أتاح له الزمانُ يداً ووجهاً في الظلام

- نارَ الهوى ويدَ الحبيب -

ما زال يحترقُ الحياة،

وكان عام بعد عام

يمضي، ووجهٌ بعد وجه

مثلما غاب الشراع

بعد الشراع ـ وكان يحلم في سكون، في سكون

بالصدر، والفم والعيون،

والحبٌّ ظلله الخلود... فلا لقاء ولا وداع

لكنه الحلمُ الطويل

بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل

بالأمس كان وكان ـ ثمّ خبا، وأنساه الملال

واليأْسُ، حتّى كيف يحلم بالضياء ـ فلا حنين

يغشى دجاه، ولا اكتئاب، ولا بكاء، ولا أنين

الصيف يحتضن الشتاءَ، ويذهبان.. ومايزال

كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح

كالسلم المنهارِ، لا ترقاه في الليل الكئيب

قدمٌ، ولا قدمٌ ستهبطه إذا التمع الصباح

ما زال قلبي في المغيب

ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء

حتّى أتتْ هي والضياء !

ما كان لي منها سوى أنّا التقينا منذ عام

عند المساء، وطوّقتني تحت أضواء الطريق

ثمّ ارتخت عني يداها، وهي تهمس ـ والظلام

يحبو، وتنطفئ المصابيح الحزانى والطريق ـ:

« أتسير وحدك في الظلام ؟

أَتسير، والأشباح تعترض السبيل، بلا رفيق ؟

فأَجبتها والذئب يعوي من بعيد، من بعيد

« أنا سوف أَمضي باحثاً عنها، سأَلقاها هناك

عند السراب وسوف أَبني مخدعين لنا هناك. »

قالت ـ ورجَّع ما تبوح به الصدى « أنا من تريد »

« أنا من تريد، فأَين تمضي ؟ فيمَ تضربُ في القفار

مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة، كنت منك على انتظار

أنا من تريدُ.. » وقبّلتْني ثمّ قالت ـ والدموع

في مقلتيها ـ « غير أَنَّكَ لن ترى حلمَ الشباب

بيتاً على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب

لولا الأغاني، وهي تعلو نصف وسنى والشموع

تلقي الضياءَ من النوافذ في ارتخاء، في ارتخاء !

أنا من تريد، وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل:

حبٌ إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل،

لا يأْس فيه ولا رجاءِ.

أنا أيها النائي القريب

لك أَنت وحدك، غير أنّي لن أَكون

لك أنت ـ أسمعها، وأَسمعهم ورائي يلعنون

هذا الغرام ـ أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب

لعنات أُمي، وهي تبكي. أيها الرجل الغريب

إِني لغيرك.. بيد أَنك سوف تبقى ولن تسير

قدماك سمّرتا فما تتحركان، ومقلتاك

لا تبصران سوى طريقي، أيها العبدُ الأسير !

« ـ أنا سوف أَمضي فاتركيني: سوف ألقاها هناك

عند السراب »

فطوقتني وهي تهمس: « لن تسير ».

« أنا من تريد، فأين تمضي بين أَحداق الذئاب

تتلمَّسُ الدربَ البعيد » ؟

فصرختُ: سوف أَسير، ما دام الحنينُ إلى السراب

في قلبيَ الظامي ! دعيني أَسلك الدربَ البعيد

حتّى أراها في انتظاري، ليس أحداق الذئاب

أقسى عليَّ من الشموع

في ليلة العرسِ التي تترقبين، ولا الظلام

والريح والأشباح، أقسى منك أنت أو الأنام !

أَنا سوف أمضي ! فارتخت عني يداها والظلام

يطغى

ولكني وقفت وملءَ عينيَّ الدموع !

١٩٤٨



غريب على الخليج

الريح تلهثُ بالهجيرةِ، كالجثامِ على الأصيلْ

وعلى القلوعِ تظل تُطوى أَو تُنشَّرُ للرحيلْ

زحمَ الخليجَ بهنَّ مكتدحون جوّابو بحار

من كل حافٍ نصفِ عار

وعلى الرمالِ على الخليج

جلسَ الغريبُ، يسرّحُ البصرَ المحيَّر في الخليجْ

ويهدُّ أَعمدةَ الضياءِ بما يصعِّدُ من نشيج:

« أَعلى من العبّاب يهدر رغْوُهُ ومن الضجيجْ

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى: عراق

كالمدِّ يصعَدُ كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريحُ تصرخُ بي عراق،

والموجُ يُعْوِلُ بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق !

البحرُ أَوسعُ ما يكون وأَنت أَبعدُ ما تكون

والبحرُ دونك يا عراق

بالأَمسِ حين مررتُ بالمقهى سمعتك يا عراق

وكنتَ دورةَ أُسطوانة

هي دورة الأَفلاك من عُمُري، تكوِّرُ لي زمانَه

في لحظتين من الزمان، وإنْ تكنْ فقَدتْ مكانَه

هي وجه أُمي في الظلام

وصوتُها، يتزلَّقان مع الرؤى حتّى أَنام

وهي النخيل أَخاف منه إِذا ادلهَمَّ مع الغروب

فاكتظ بالأَشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب،

وهي المفليّة العجوزُ وما توشوشُ عن « حزام »

وكيف شق القبرَ عنه أمام عفراء الجميلة

فاحتازها... إلاّ جديله،

زهراءُ، أنتِ. أتذكرين

تنُورنَا الوهّاجَ تزحمه أكفُ المصطلين ؟

وحديثَ عمّتي الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟

ووراء بابٍ كالقضاءْ

قد أوصدَتْهُ على النساء

أيدٍ تطاعُ بما تشاءُ، لأنها أيدي رجال ـ

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال

أَفتذكرينَ ؟ أَتذكرين ؟

سعُداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين ِ لأَنَّه قَصص النساء

حشدٌ من الحَيَواتِ والأَزمانِ، كنا عنفوانَه

كنا مَدارَيْه اللذْين ينالُ بينهما كيانه

أَفليس ذلك سوى هباء ؟

حُلُمٌ ودورةُ أُسطوانَه ؟

إِنْ كان هذا كلَّ ما يبقى فأَين هو العزاء ؟

أَحْببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أَنتِ فيه،

يا أَنتما، مصباحُ روحي أنتما ـ وأَتى المساء

والليلُ أَطبق فلتشعاّ في دجاه فلا أَتيهْ

لو جئتِ في البلدِ الغريبِ إِليَّ ما كَمُلَ اللقاء

الملتقى بك والعراقُ على يديَّ.. هو اللقاء

شوقٌ يخضُّ دمي إليه، كأَنَّ كلَّ دمي اشتهاء

جوعٌ إليه.. كجوعِ كلِّ دم الغريق إلى الهواء

شوقُ الجنين إِذا اشرأَبَّ من الظلام إلى الولاده

إنّي لأعجبُ كيف يمكن أَن يخونَ الخائنون

أَيخونُ إِنسانٌ بلاده ؟

إنْ خان معنى أَن يكون فكيف يمكن أَن يكون ؟

الشمسُ أَجمل في بلادي من سواها والظلام

ـ حتّى الظلام ـ هناك أَجملُ، فهو يحتضن العراق

واحسرتاه، متى أَنام

فأُحِسُّ أَنَّ على الوسادة،

من ليلِكَ الصيفيِّ طَلاًّ فيه عطرُكَ يا عراق

بين القُرى المتهيبات خطايَ والمدن الغريبه

غنّيتُ تربتَك الحبيبه

وحملتُها، فأَنا المسيحُ يجرٌّ في المنفى صليبَه

فسمعتُ وقعَ خطا الجياعِ تسيرُ، تدمى من عثار

فتذرٌّ في عينيَّ، منك ومن مناسِمِها، غبار

ما زلتُ أَضربُ، مُترِبَ القدمين أَشعثَ، في الدروب

تحت الشموسِ الأَجنبيّة

متخافق الأطمار، أَبسطُ بالسؤال يداً نديّهْ

صفراءَ من ذلٍّ وحُمّى، ذلِّ شحاذٍ غريب

بين العيونِ الأجنبيّهْ

بين احتقارٍ وانتهارٍ، وازدراءٍ... أَو « خطيَّهْ »

والموتُ أَهونُ من « خطيَّة »

من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيّهْ

قطراتِ ماءٍ معدنيّهْ !

فلتنطفي، يا أَنتِ، يا قطراتُ، يا دمُ، يا... نقودُ

يا ريحُ يا إبراً تخيط لي الشارعَ - متى أَعودُ

إلى العراقِ، متى أَعود ؟

يا لمعةَ الأمواجِ رنَّحَهُنَّ مجدافٌ يرود

بيَ الخليجَ، ويا كواكبَه الكبيرةَ.. يا نقود !

ليت السفائنَ لا تقاضي راكبيها عن سِفارِ

أوليت أن الأرض كالأفق العريض، بلا بحار

ما زلت أَحسُبُ يا نقودُ، أُعدّكنَّ واستزيد،

ما زلتُ أنقِصُ، يا نقودُ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

ما زلتُ أُوقِدُ بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي

في الضفة الأخرى هناكَ، فحدثيني يا نقودُ

متى أَعودُ متى أَعود ؟

أَتراهُ يأْزِفُ، قبل موتي، ذلك اليوم السعيدُ ؟

سأَفيق في ذلك الصباحِ، وفي السماء من السحابِ

كِسَرٌ، وفي النسماتِ بردٌ مشبَعٌ بعطورِ آبِ

وأزيحُ بالثُؤَباءِ بُقيا من نعاسي كالحجابِ

من الحريرِ، يشفُّ عمّا لا يبينُ وما يبينْ:

عمّا نسيتُ وكدتُ لا أَنسى، وشكٍ في يقين.

ويضيء لي ـ وأَنا أَمدُّ يدي لأَلبسَ من ثيابي

ما كنتُ أبحثُ عنه في عتماتِ نفسي من جوابِ

لِمَ يملأُ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضبابِ

اليومَ ـ واندفق السرورُ عليَّ يفجأَني ـ أَعودُ !

واحسرتاهُ ؟. فلن أعودَ إلى العراق !

وهل يعودُ

من كان تُعْوِزه النقودُ ؟ وكيف تُدَّخرُ النقود

وأنت تأْمَلُ إذ تجوع ؟ وأنت تنفقُ ما يجورُ

به الكرامُ على الطعام ؟

لتبكيَنَّ على العراقِ

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك، دون جدوى للريح وللقلوح

الكويت ١٩٥٣

في المغرب العربي

قرأْتُ اسمي على صخرة

هنا في وحشة الصحراء

على آجرّةٍ حمراء

على قبر.. فكيف يحسُّ إنسانٌ يرى قبره

يراه وإنّه ليحار فيه:

أحيٌّ هو أم ميتٌ ؟ فما يكفيه

أن يرى ظلاً له على الرمال

كمئذنةٍ معفرة

كمقبرةٍ كمجدٍ زال

كمئذنةٍ تردَّدَ فوقَها اسم الله

وخُطَّ اسمٌ له فيها

وكان محمدٌ نقشاً على آجرّةٍ خضراء

يزهو في أعاليها

فأَمسى تأْكل الغبراء

والنيرانُ من معناه

ويركله الغزاة بلا حذاء

بلا قدِم

وتنزف منه دون دم

جراحٌ دونما ألمٌ

فقد مات

ومتنا فيه من موتى ومن أحياء

فنحن جميعُنا أموات

أنا ومحمد والله

وهذا قبرُنا: أنقاضُ مئذنةٍ معفَّرةٍ

عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله

على كِسَرٍ مبعثَرةٍ

من الآَجرِّ والفخار

فيا قبرَ الإله على النهار

ظلٌ لألفِ حربةٍ وفيل

ولونُ أبرهة

وما عكسته منه يد الدليل

والكعبةُ المحزونة المشوّهة

قرأْتُ اسمي على صخرة

على قبرين بينهما مدى أجيال

يجعلُ هذه الحفرة

تضم اثنين: جدَّ أبي ـ ومحضُ رمال

ومحضُ نثارةٍ سوداءَ منه، استتُرْلا قبره ـ

وإياي، ابنَهُ في موتِهِ والمُضغةِ الصلصال

وكان يطوف من جدّي مع المدّ

هتافٌ يملأ الشطآن: « يا وديانَنا ثوري !

ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالُ

يا إرثَ الجماهيرِ،

تنشْظَّ الآن واسحَقْ هذه الأَغلالْ

وكالزلزال

هزَّ النيرَ، أو فاسحقه واسحقنا مع النير ».

وكان إلهنا يختال

وكان عصائب الأَبطالْ

من زندٍ إلى زندِ

ومن بندٍ إلى بندِ

إِلهُ الكعبةِ الجبّارُ

تدرَّعَ أمسِ في ذي قار

بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ

إِلهُ محمدٍ وإِلهُ آبائي من العربِ

تراءى في جبال الريف يحمل رايةَ الثوار

وفي يافا رآه القومُ يبكي في بقايا دار

وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحبِ:

جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي

فلم نَضْمِدْ له جرحاً

ولا ضحّى

له منا بغير الخبز والأنعامِ من عبدِ !

وأصواتُ المصلين ارتعاشٌ من مراثيه

إذا سجدوا ينزُّ دمٌ

فيسرعُ بالضمادِ فمٌ

بآياتٍ يغضُّ الجرح منها خير ما فيه

تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه

إذا ما هلّلَ الثوارُ منا: « نحنُ نفديه »

أغار، من الظلام على قرانا

فأَحرقهنَّ سربٌ من جرادِ

كأَنَّ مياه دجلةَ حيثُ دلّى

تنمٌّ عليه بالدمِ والمدادِ.

أليسَ هو الذي فجأَ الحبالى

قضاه، فما ولدنَ سوى رمادِ

وأنعلَ، بالأهلّةِ في بقايا

مآذِنِها، سنابكَ من جوادِ

وجاء الشامَ يسحبُ في ثراها

خطا أسدين جاعا في الفؤادِ

فأَطعم أجوَعَ الأسدين عيسى

وبلَّ صداه من ماءِ العمادِ

وعضَّ نبيَّ مكة... فالصحارى

وكلٌّ الشرق ينفر للجهادِ

أعاد اليومُ، كي يقتصَّ من أنّا دحرناه ؟

وأنَّ الله باقٍ في قرانا، ما قتلناه !

ولا من جوعنا يوماً أكلناه !

ولا بالمال بعناه ؟

كما باعوا

إلهَهم الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه

كما أكلوه إذ جاعوا

إلههم الذي من خبزنا الدامي جبلناه

وفي باريس تتّخذ البغايا

وسائدَهن من ألم المسيحَ

وبات العقمُ يزرعُ في حشاها

فم التنين: يشهق بالفحيحِ

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافلَ كالفوارسِ، دون روحِ

تجدُّ وراءَ مكّة في الصياصي

أقمناها ويثرب في السفوح

قرأْت اسمي على صخرة

وبين اسمين في الصحراء

تنفَّسَ عالمُ الأحياء

كما يجري دمُ الأحياءِ بين النبضِ والنبضِ

ومن آجرّةٍ حمراء ماثلةٍ على حفرة

أضاءَ ملامحَ الأَرضِ

بلا ومضِ

دمٌ فيها، فسمّاها

لتأْخذَ منه معناها

لأعرفَ أنها أَرضي لأعرفَ أَنها بعضي

لأَعرفَ أَنها ماضيَّ، لا أحياه لولاها

وأنّي ميّتٌ لولاه، أمشي بين موتاها

أَذاك الصاخبُ المكتظ بالراياتِ وادينا

أَهذا لونٌ ماضينا

تضوّأَ من كوى « الحمراءْ »

ومن آجرّةٍ خضراء

عليها تكتب اسم الله بُقيا من دمٍ فينا ؟

أَنَبْرٌ من أَذانِ الفجر ؟ أم تكبيرةُ الثوارْ

تعلو من صياصينا ؟

تمخَّضتِ القبورُ لتنشرَ الموتى ملايينا

وهبَّ محمدٌ وإلهُهُ العربيُّ والأَنصارْ:

إِنَّ إلهنا فينا.

المبغى [1]

بغداد مبغى كبيرْ

(لواحظ المغنيّه

كساعة تتكٌّ في الجدار

في غرفة الجلوس في محطة القطار)

يا جثة على الثرى مستلقيه

الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحرير

---

[1] كتبت في زمن الحكم الملكي ..!!

بغداد كابوسٌ: (ردىً فاسدٌ

يجرعه الراقدٌ

ساعاته الأيام، أيّامه الأعوام، والعام نيرْ:

العام جُرحٌ ناغرٌ في الضمير)

عيون المها بين الرصافة والجسرْ

ثقوب رَصاصٍ رقّشت صفحة البدر،

ويسكبِ البدر على بغداد ؟

من ثُقبي العينين شلالاً من الرمادْ:

الدور دارٌ واحده،

وتعصر الدروب، كالخيوط، كلُّها

في قبضة مارده

تمطُّها، تشلُّها،

تحيلها درباً إلى الهجير.

وأوجه الحسان كلهنّ وجهٍ ناهده «

(حبيبتي التي لُعابها عَسلْ

صغيرتي التي أردافها جبل

وصدرها قُلل

ونحن في بغداد ؟ من طين

يعجنه الخزّافُ تمثالاً،

دنيا كأحلام المجانين

ونحن ألوانٌ على لجّها المرتجّ أشلاءً وأوصالاً

بالأمس كان العيد، عيد الزهورْ:

الزاد تحثوه الربى، والخمور،

والرقص والأغنيات

والحب والكركرات.

ثمّ انتهى إلاّ بقايا طيور

تلتقط الحَبَّ، وإلاَّ دماء

مما نماه الحقلُ ـ طيرٌ وشاء

وغير أطفال يطوفون أُور:

« العيدُ، من قال انتهى عيدُنا

فلتملأ الدنيا أناشيدنا

فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور..

بالأمس كان العيد، عيد الزهور

واليوم ؟ ما نفعلُ ؟

نزرع أم نقتل ؟

أهذه بغداد ؟

أم أن عاموره

عادت فكان المعادْ

موتاً ؟ ولكنني في رنّة الأصفاد

أحسَسْتُ... ماذا ؟ صوت ناعورة

أم صيحة النسْغ الذي في الجذور ؟

إلى العراق الثائر

قصيدة يبعثها من مستشفى

ماري من لندن ١٩٦٣/٢/٨

عملاءُ « قاسمَ » يطلقون النارَ، آهِ، على الربيعْ،

سيذوب ما جمعوه من مالٍ حرامٍ كالجليدْ

ليعود ماءً منه تَطْفحُ كلُ ساقيةٍ، يُعيد

ألقَ الحياةِ إلى الغصون اليابسات فتستعيد

ما لُصّ منها في الشتاء القاسيّ... فلا تضيع.

يا للعراقْ

ياللعراقْ ! أكاد ألمحُ، عَبْرَ زاخرةِ البحارْ.

في كلِ منعَطَفٍ، ودربٍ، أو طريق، أو زقاق

عَبْرَ الموانئ والدروبْ،

فيه الوجوهَ الضاحكات تقولُ: « قد هربَ التتّارْ

والله عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النّهار،

طلع النهار فلا غروب ! »

يا حفصةُ ابتسمي فثغركِ زهرة بين السهوب،

أخذتْ من العملاء ثأرَكِ كفٌّ شعبيَ حين ثار

فهوى إلى سَقَرٍ عدوّ الشّعْب، فانطلقتْ قلوب

كانت تخاف فلا تحنّ إلى أخٍ عَبْرَ الحدودْ،

كانت على مَهَلٍ تذوب،

كانت إِذا مال الغروب

رفعت إلى الله الدّعاءَ: « ألا أغثْنا من ثمود

من ذلك المجنون يعشق كلَّ أحمرَ، فالدماءْ

تجري وألسِنَةُ اللهيب تُمدُّ، يعجبه الدمار.

أحرقْه بالنيران تهبط كالجحيم، من السماء،

واصرعْه صرعاً بالرصاص ! فإِنه شبحُ الوباء ».

هرع الطبيبُ إِليّ - آهِ، لعله عرف الدواء

للداء في جسدي فجاء ؟ -

هرع الطبيبُ إِليَّ وهو يقول: « ماذا في العراق ؟

الجيْشُ ثارَ ومات « قاسم »... » - أي بُشْرى بالشفاء !

ولكدتُ من فرَحي أقوم، أسيرُ، أعدو دون داء.

مرحى له.. أيّ انطلاقْ ! ؟

مرحى لجيش الأمةِ العربيةِ انتزع الوثاق !

يا إخوتي بالله، بالدم، بالعروبة، بالرجاء،

هبّوا فقد صرُعَ الطغاةُ وبدّد الليلَ الضياء !

فلتحرسوها ثورةً عربيةً صعُقِ « الرفاقْ »

منها وخرّ الظالمون،

لأن « تموزَ » استفاقْ

من بعدِ ما سرق العميل سناه، فانبعثَ العراقْ

ربيع الجزائر

سلاماً بلادَ اللظى والخراب

ومأوى اليتامى وأرض القبور،

أتى الغيث وانحلّ عقد السحاب

فروّى ثرى جائعاً للبذور.

وذاب الجناح الحديد

على حمرة الفجر تغسل في كل ركن بقايا شهيد

وتبحث عن ظامئات الجذور.

وما عاد صبحك ناراً تقعقع غضبى وتزرع ليلاً

وأشلاء قتلى

وتنفث قابيل في كلّ نارٍ بسفّ الصديد.

وأصبحتِ في هدأةٍ تسمعين نافورةً من هتاف

لديك يبشّر أن الدجى قد تولّى

وأصبحت تستقبلين الصباح المطلاّ

بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخاف

فتأوي إلى عاريات الجبالِ

ترقع أصداءها بالرمالِ

بماذا ستستقبلين الربيع ؟

ببقيا من الأعظم البالية

لها شعله رشّت الدالية،

تعير العناقيد لون النجيع.

وفي جانبي كل درب حزين

عيون تحدّق، تحت الثرى

تحدّق في عورة العاجزين.

لو تستطيع الكلام

لصبّت على الظالمين

حميماً من اللعنات، من العار، من كل غيظ دفين.

ربيعك يمضع قَيْحَ السلام.

بيوتك تبقى طوال المساء

مفتحةً فيك أبوابها

لعل المجاهد بعد انطفاء اللهيب وبعد النوى والعناء

يعود إلى الدار يدفن تحت الغطاء

جراحاً، يفرّ إليه الصغار ترفرب أثوابها

يصيحون « بابا » فيُفطر قلب السماء

ـ « وماذا حملتَ لنا من هديّة ؟ »

ـ « غداً ضاحكاً أطلعتْه الدماء. »

وكم دارةٍ في أقاصي الدروب القصيّة

مفتحة الباب، تقرعه الريح في آخر الليل قرعاً

فتخرج أم الصغار

ومصباحها في يد أرعش الوجد منها

برود الدجى، ما أنار

سوى الدرب قفر المدى، وهي تصغي وترهف سمعاً

وما تحمل الريح إلاَّ نباح الكلاب البعيد،

فتُخفت مصباحها من جديد.

ولمّا استرحنا بكيْنا الرفاق ! »

هماس لأنييس عبر القرون

وها أنتِ تدمع فيكِ العيون

وتبكين قتلاك.

نامت وغىً فاستفاق

بكِ الحزنُ: عاد اليتامى يتامى،

ردىً عاد ما ظُنّ يوماً فراق.

سلاماً بلاد الثكالى، بلاد الأيامى

سلاماً

سلاماً....

شباك وفيقه

شبُّاكُ وفيقةَ في القَرْيهْ

نَشوانُ يطِلُّ على السَّاحه

(كجليلٍ تنتظرُ المشيه

ويسوعَ) وينشرُ ألواحَه ـ

إيكارُ يمُسّحُ بالشمسِ

ريشاتِ النَّسرِ وينطلقُ،

ايكارُ تلقّفهُ الأفُقُ

ورَماهُ إلى اللُجِ الرمسِ -

شبُّاكُ وفيقةَ يا شجره

تَتَنَفّسُ في الغبشِ الصاَحي

الأعينُ عندَكَ مُنتَظرة

تَترقّبُ زهرةَ تفاحِ،

وبُويبُ نشيدْ

والرّيحُ تُعيدْ

أَنعامَ الماءِ على السَّعفِ

ووفيقةُ تنظرُ في أَسفِ

من قاعِ القَبرِ وتنتظرُ:

سيمرٌّ فيهمسُه النَّهرُ

ظِلّاً يتماوجُ كالجرسِ

في ضَحوةِ عيدْ،

ويَهفٌّ كحبَّاتِ النَّفَسِ.

والرِّيحُ تُعيدُ

أَنغام الماءِ (هو المطرُ)

والشَمسُ تُكَركرُ في السَّعفِ.

شبُّاكٌ يَضحكُ في الألقِ ؟

أم بابٌ يفتحُ في السُورِ

فَتقرٌّ بأجْنِحةِ العبَقِ

رُوحٌ تَتلَهفُ لِلنّورِ؟

يا صخرةَ مِعراجِ القَلبِ

يا " صُوَرَ " الألفةِ والحُبِّ

يا درباً يصْعدُ للربِّ

لولاكِ لما ضَحِكتْ للأنسامِ القرْيه،

في الرّيحِ عبيرْ

من طَوْقِ النَّهرِ يُهدْهدُنا ويُغنينا

(عوليسُ مع الأمواجِ يَسير

والرِّيحُ تُذكّرهُ بجزائرَ منسيّه

" شِبْنا يا ريحُ فخلّينا ")

العالمُ يفتحُ شبّاكَهُ

من ذاكَ الشبّاكِ الأَزرق،

يتَوحّدُ، يجعلُ أشواكَه

أزهاراً في دعةٍ تعبُقْ.

شبّاكٌ مِثلُك في لبُنانْ،

شبّاكٌ مِثلُك في الهِندِ،

وفتاةٌ تحلمُ في اليابان

كَوفيقةَ تحلُمُ في اللّحدِ

بالبرقِ الأَخضرِ والرَّعد.

شبُّاكٌ وفيقة في القرية

نَشوانٌ يطلُّ على السَّاحة

(كجليلٍ تحلمُ بالمشيه

ويسوع).

ويُحرِقُ ألواحَهُ.

عرس في القرية

مثلما تنفض الريحُ ذرّ النضارْ

عن جناح الفراشة، مات النهار.

النهار الطويلْ.

فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبقَ إلاَّ القليلْ.

كان نقرُ الدَّرابك منذ الأصيل

يتساقط، مثلَ الثمار،

من ريح تهوم بين النخيل،

يتساقط مثل الدموع

او كمثل الشرار:

إنها ليلة العُرس بعد انتظار !

مات حبٌ قديم، ومات النهار

مثلما تُطفئ الرّيح ضوءَ الشموع،

ألشموع.. الشموع،

مثل حقل من القمح عند المساء،

من ثغور العذارى تعبّ الهواء،

حين يرقصن حول العروس

منشداتٍ « نوار، أهنئي، يا نوار! ».

«حلوةٌ أنت مثل الندى يا عروس».

يا رفاقي سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار.

زهّدتها بنا حفنة من نُضار:

خاتم أو سوار، وقصرٌ مشيدٌ

من عظام العبيد..

وهي، يا ربِّ، من هؤلاء العبيد !

ولو أننا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادّخرنا ـ على جوع أطفالنا الجائعين ـ

ما اكتسبناه في كدنا من نقود،

ما اشترينا لها خاتماً أو سوار !

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرقِ

من رفات الضحايا مئات اللحود

اشتراها به الصيرفيٌّ الشقي.

مثلما تنثر الرّيح عند الأصيل

زهرة الجلّنار ـ

أقفر الريف لمّا تولّت نوار.

بالصبابات، يا حاملات الجرار

رُحْنَ واسألنَها: « يانوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل ؟

للذي لا تكادين أن تعرفيه !

يا ابنة الريف، لم تنصفيه !

كم فتىً من بنيه

كان أولى بأن تعشقيه ؟

إنهم يعرفونك منذ الصغرْ

مثلما يعرفون القمر.....

مثلما يعرفون حفيف النخيلْ

وضفاف النهر

والمطر

والهوى، يا نوار.... ».

احصدوا يا رفاقي، فإن المغيب

طاف بين الروابي يرش اللهيب

من أباريق مجبولة من نضار،

والزغاريد تصدي بها كل دار:

أوقد القصر أضواءه الأربعين،

فاتبعوني إليها مع الرائحين.

اتركوني أغني أمام العريس

وأراقص ظلي كقرد سجين

وأمثّلُ دور المحب التعيس

ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين،

من هواي المضاع،

من قلوب الجياع

حين َتهوى، ومن ذلة الكادحين.

سوف آكلُ حتّى ينزَّ الدمُ

من عيوني... فما زال عندي فمٌ:

كل ما عندنا نحنُ، هذا الفمُ !

كان وهماً هواناً، فإن القلوب

والصبابات وقفٌ على الأغنياء !

لا عتابٌ.. فلو لم نكن أغبياء

ما رضينا بهذا، ونحن الشعوب.

النهر والموت

بُوَيبْ...

بُوَيبْ...

أَجراسُ برُجٍ ضاعَ في قَرارةِ البَحَرْ.

الماءُ في الجِرارِ، والغُروبُ في الشَّجَرْ

وتنضحُ الجِرار أجراساً من المَطَرْ

بلُّورها يذوبُ في أَنينْ

" بُوَيبْ... يا بُوَيبْ ! "،

فيدلهمُّ في دمي حَنينْ

إليكَ يا بُويبْ،

يا نهريَ الحزينَ كالمطَرْ.

أودُّ لو عدوتُ في الظلَّامْ

أشدُّ قَبضتيَّ تحملان شوقَ عامْ

في كلِّ إِصبعٍ كأنّي أَحملُ النُّذورْ

إليكَ، من قمحٍ ومنْ زُهورْ.

أودُّ لو أطلُّ من أسرةِ التِلالْ

لألمحَ القَمَرْ

يخوضُ بين ضَفتيكَ، يَزْرعُ الظِّلالْ

ويملأُ السِّلالْ

بالماءِ والأسْماكِ والزَهَرْ.

أودُّ لو أخوضُ فيكَ، أَتبَعُ القَمَرْ.

وأسمعُ الحصى يصلُّ مِنكَ في القَرار

صليلَ آلافِ العصافيرِ على الشَجَرْ.

أغابةٌ منَ الدموعِ أَنتَ أَمْ نَهرْ ؟

والسَّمكُ الساهرُ، هل ينامُ في السَّحَرْ ؟

وَهذه النُّجومُ، هل تظلُّ في انتظارْ.

تُطعمُ بالحريرِ آلافاً من الإبَرْ ؟

وأَنتَ يا بُويبْ....

أودُّ لو غرقْتُ فيكَ، ألقطُ المحارْ

أشيدُ منهُ دارْ

يضيءُ فيها خَضْرةَ المياهِ والشَّجَرْ

ما تَنضحُ النجومُ والقَمَرْ ،

وأغتدي فيكَ مع الجَزَرِ إلى البَحَرْ !

فالموت عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصِّغارْ،

وبابُه الخفي كانَ فيكَ، يا بُويبْ...

بُوَيبْ... يا بُوَيبْ،

عشرونَ قد مضينَ، كالدُّهور كلَّ عامْ.

واليومَ، حين يُطبِقُ الظَلامْ

وأستقرُّ في السَريرِ دونَ أَنْ أَنامْ

وأُرْهِفُ الضَميرَ: دوْحةً إلى السَّحَرْ

مرهفَةَ الغُصونِ والطُيورِ والثَّمَرْ -

أُحسَّ بالدِّماءِ والدُموعِ، كَالمَطَرْ

ينضَحُهُنَّ العالمُ الحَزينْ:

أجراسُ موتى في عُروقي تُرْعِشُ الرَّنينْ،

فَيَدْلَهمُّ في دمي حَنينْ

إلى رَصاصةِ يَشقُّ ثَلْجُها الزُّؤامْ

أعماقَ صدري، كالجَحيمِ يُشعِلِ العِظامْ.

أودُّ لو عَدوتُ أَعضدُ المُكَافحينْ

أشدُّ قَبْضتيَّ ثمّ أصفعُ القدر.

أودُّ لو غَرِقتُ في دمِي إلى القَرارْ،

لأحملَ العبء مَعَ البَشَرْ

وأبعثَ الحياةَ. إنَّ موتيَ انتِصارْ !

المسيح بعد الصلب

بَعدَما أَنزَلوني، سمِعتُ الرِّياحْ

في نُواح طويل تسفُّ النَّخيلْ،

والخُطى وهي تنأى. إذنْ فالجراحْ

والصلَّيبُ الذي سمَّروني عليهِ طوالَ الأَصيلْ

لم تمتْني. وأنصتُّ: كانَ العَويلْ

يَعبرُ السَهلَ بيني وبينَ المدينة

مثل حبل يشد السفينة

وهي تهوي إلى القاع. كان النَّواح

مثلَ خَيْط من النُّورِ بينَ الصبَّاحْ

والدُجى، في سماءِ الشتاءِ الحزينه.

ثمّ تغفو، على ما تحسُّ، المَدينه.

حينَما يُزهرُ التوت والبُرتقالْ،

حينَ تمتدُّ " جيكور " حتّى حُدودِ الخَيالْ،

حينَ تخضرُّ عشباً يُغنّي شذَاها

والشُموسَ التي أرضَعتْها سنَاها،

حينَ يَخضرُّ حتّى دُجاها،

يلمسُ الدفءُ قلبي، فَيجري دمي في ثَراها.

قلبيَ الشمسُ إذ تنبضُ الشَمسُ نوراً،

قلبيَ الأرضُ، تنبضُ قَمحاً، وزَهراً، وماءً نميرا،

قلبيَ الماءُ، قَلبي هُوَ السنُبلُ

موتهُ البعثُ: يحيا بمنْ يأْكلُ.

في العجينِ الذي يَستدِيرْ

ويُدحى كنهدٍ صغير، كَثَدي الحياة،

متُّ بالنَّار: أحرقتُ ظلماءَ طيني، فَظَلَّ الإله.

كُنت بدءاً وفي البدء كانَ الفقير.

متّ، كي يُؤكلُ الخبزُ باسمي، لكي يَزْرَعوني معَ الموسمِ،

كم حياة سأحيا: ففي كلِّ حُفره

صرتُ مُسْتقبلاً، صرتُ بذْرَه

صرتُ جيلاً من الناسِ: في كلِّ قَلبٍ دمي

قطرةٌ منه أو بَعضُ قطره.

هكذا عدتُ، فاصفرَّ لمّا رآني يَهوذا...

فقد كنتُ سرِّه.

كأنَّ ظلاً، قد اسودَّ، منّي، وتمثالَ فكره.

جُمدّتْ فيهِ واستُلتِ الروحُ منها،

خافَ أن تفضحَ الموتَ في ماءِ عَينيهِ....

(عيناهُ صخره

راحَ فيها يُواري عن الناسِ قَبره)

خافَ من دِفئِها، من محالٍ عليه، فخبَّرَ عنها.

ـ " أنتَ ! أم ذاك ظِلي قد أبيضَّ وارفضَّ نوراً ؟

أنتَ من عَالمِ المَوْتِ تَسعى ! هُوَ الموتُ مرَّه.

هكذا قالَ آباؤنا، هكذا علّمونا فهلْ كانَ زُوراً ؟ "

ذاكَ ما ظنَّ لمّا رآني، وقالتْهُ نَظْره.

قدمٌ تَعدو، قدمٌ، قدمٌ

القبرُ يكادُ بوقعِ خُطاها ينْهدِمُ.

أترَى جاؤوا ؟ من غَيرُهمُ ؟

قدمٌ.. قدمٌ.. قدمَ

القيتُ الصَّخرَ على صَدْري،

أَو ما صلَبوني أمسِ ؟... فها أنا في قَبْري.

فليأتوا ـ إنّي في قَبْري.

منْ يَدري أنّي... ؟ منْ يدري ؟؟

ورفاقٌ يَهوذا ؟! من سيصدّقُ ما زعموا ؟

قدمٌ.. قدمٌ.

ها أنا الآن عَريانٌ في قَبريَ المظْلِمِ:

كنتُ بالأمسِ ألتفُّ كالظنِّ، كالبرُعمِ،

تحْتَ أكفانيَ الثلجِ، يخضلُّ زهرُ الدمِ،

كنتُ كالظل بين الدُجى والنَّهارْ -

ثمّ فجَّرتُ نَفسي كُنوزاً فعرَيتُها كالثِّمارْ.

حين فصلّتُ جيبيِ قِماطاً وكُمّي دثار،

حين دفأّتُ يوماً بلَحمي عِظامَ الصغارْ،

حينَ عرّيتُ جُرحي، وضَمَدّتُ جُرحاً سِواه،

حَطّم السوُّرُ بيني وبينَ الإله.

فاجأَ الجُندُ حتّى جِراحي ودقاتِ قلَبي

فاجأوا كلَّ ما ليس موتاً وإن كانَ في مَقْبرَه

فاجأوني كَما فاجأَ النخلةَ المثُمِره

سربُ جَوْعى من الطَّيرِ في قَريةٍ مُقفِره.

أعينُ البندقيات يأكْلنَ دَرْبي،

شرَّعٌ تحلُم النارُ فيها بصلَبْي،

إن تكنْ من حديدٍ ونارٍ، فأحداقُ شعبي

من ضياءِ السماواتِ، من ذكرياتِ وحُبِّ

تحملُ العبءَعَنّي فيندى صلْيبي، فما أَصغَرَه

ذلكَ الموتُ،موتي، وما أَكْبَرَه !

بعدَ أن سمّروني وأَلقيتُ عينيّ نَحو المَدينة

كدتُ لا أعرف السَّهلَ والسُّور والمقبره:

كانَ شيءٌ، مدى ما ترى العينَ،

كالغابةِ المزُهره،

كانَ، في كُلّ مَرْمى، صليبٌ وأمٌّ حزينه.

قُدِّسَ الربُّ !

هذا مَخاضُ المَدينه.

جيكور أمي

تلك أمي، وإِنْ أجئْها كسيحا

لاثماً أزهارها والماء فيها، والتُّرابا

ونافضاً، بمقلتي، أعشاشها والغابا:

تلك أطيار الغد الزرقاء والغبراء يعبرن السطوحا

أو ينشرّْن في بُويْبَ الجناحين: كزهرٍ يفتّح الأفوافا.

ها هنا. عند الضحى، كان اللقّاءْ

وكانت الشمس على شفاهها تكسِّرُ الأطيافا

وتسفح الضياء.

كيف أمشي، أجوب تلك الدروب الخُضْرَ وأطرق الأبوابا

أطلب الماء فتأتيني من الفخَّار جرّه

تنضح الظلَّ البرود الحُلْوَ... قطره

بعد قطره.

تمتد بالجرّه لي يدان تنشران حول رأسي الأطيابا:

(هالتي) تلك. أم (وفيقة) أم (إقبال).

لم يبق لي سوى أسماء

من هوىً مرَّ كرعدٍ في سمائي

دون ماء.

كيف أمشي ! خطايا مزّقها الداء... كأني عمودْ ملحِ يسيرُ...

أهي عامورة الغويّة أم سادوم ؟

هيهات.. إنها جيكورُ:

جنةٌ كان الصبي فيها وضاعت حين ضاعا.

آه لو أن السنين السود قَمْحٌ أو صخورُ

فوق ظهري حملتُهنَّ، لألقيْتُ بحملي فنفّضتْ جيكورُ

عن شُجيراتها تراباً يغشّيها وعانقتُ معزفي ملتاعاً،

يجهش الحبّ، به. لحناً فلحنا

ولقاءً فوداعا

آه لو أن السنين الخُضْر عادت، يوم كُنّا

لم نزل بعدُ فتّيّين لقبلّتُ ثلاثاً أو رُباعاً

وجنتيْ (هالةَ) والشَّعْر الذي نشرَّ أمواج الظلام

في سيولٍ من العطور التي تحمل نفسي إلى بحارٍ عميقة

ولقبّلتُ، برغم الموت، ثغراً من وفيقة

ولأوصلتُك يا (إقبال) في ليلة رعدٍ ورياح وقتامٍ،

حاملاً فانوسيَ الخفاق تمتدُّ الظلالْ

منه أو تقصر، إذ يرعش في ذاك السكونْ،

ذلك الصمتِ سوى قَعْقعة الرعد،

سوى خفْق الخطا بين التّلال

وحفيف الرّيح في ثوبْكِ، أو وهْوهه الليل مشى بين الغصون،

ولعانقتُك عند الباب، ما أقسى الوداعْ !!

آهٍ.. لكن الصبّى ولّى وضاع،

الصِّبى والزمانُ لن يرجعا بعْدُ،

فقرّي يا ذكريات ونامي

لندن ١٩٦٣/٢/٥

أنشودة المطر

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحرْ.

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمرْ

عيناكِ حين تبسمان تُورقُ الكرومْ.

وترقص الأضواء.. كالأقمار في نَهَرْ.

يرجه المجذافُ وهناً ساعة السحَرْ.

كأنّما تنبضُ في غوريهما النُجوم...

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيفْ

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،

دفءُ الشتاء فيه وارتعاشهُ الخريف،

والموتُ، والميلادُ، والظلامُ، والضياءُ،

فتستفيقُ ملءَ روحي، رعشةُ البكاء

ونشوةٌ وحشيةٌ تعانِقُ السماء

كنشوة الطفل إذا خافَ من القمر !

كأَنَّ أقواس السحاب تشربُ الغيوم.

وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...

وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم،

ودغدغت صمتَ العصافير على الشجر

أنشودةُ المطر....

مطر... مطر... مطر...

تثاءب المساءُ والغيوم ما تزالْ.

تسحّ ما تسحّ من دموعها الثِّقال.

كأنّ طفلاً بات يهذي قبلَ أن ينام:

بأنّ أمَّه ـ التي أفاقَ منذ عام

فلم يجدْها، ثمّ حين لجَّ في السؤال

قالوا له: « بعد غدٍ تعودْ... »

لا بدّ أن تعودْ

وأن تهامس الرِّفاق أنَّها هناكْ

في جانب التلِّ تنام نومة اللُّحود

تسفّ من ترابها وتشربُ المطرْ،

كأنَّ صياداً حزيناً يجمع الشِّباكْ

ويلعن المياهَ والقدَرْ

وينثرُ الفناءَ حيث يأفل القمرْ

مطر... مطر...

اتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر ؟

وكيف تنشجُ المزاريبْ إذا انهمرْ ؟

وكيف يشعرُ الوحيد فيه بالضياع

بلا انتهاءٍ ـ كالدم المراق، كالجياع،

كالحبِّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر !

ومقلتاكِ بي تُطفيان مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسحُ البروق

سواحلَ العراق بالنجوم والمحارْ،

كأنها تهم بالشروق

فيسحب الليل عليها من دم دِثار.

أصيحُ بالخليج << يا خليج

يا واهبَ اللؤلؤ، والمحار، والردى ! »

فيرجع الصدى، كأنه النشِيج

« يا خليج ! يا واهب المحار والردى »

أكادُ اسمع العراق يذخر الرعودْ

ويخزن البروق في السهول والجبال،

حتّى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجالْ

لم تترك الرّياح من ثَمودْ، في الوادي من أثر.

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر

وأسمع القرى تئن والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع

عواصفَ الخليج، والرعودَ منشدين:

مطر... مطر... مطر...

وفي العراق جُوعْ، وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربانُ والجراد، وتطحن الشوان والحجر.

رحى تدور في الحقول.. حولها بشر،

مطر... مطر... مطر...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموع ، ثمّ اعتللنا

- خوف أن نلام - بالمطر... مطر... مطر...

ومنذ أن كنا صغاراً، كانت السماء تغيم في الشتاء ويهطل المطر،

وكلّ عام حين يُعشب الثرى، نجوعْ

ما مرّ عام والعراق ليس فيه جوع.

مطر... مطر... مطر...

في كل قطرة من المطر، حمراءُ أو صفراءُ من أجنَّة الزهر.

وكل دمعة من الجياع والعراة،

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد

أو حلمةٌ توردت على فم الوليد،

في عالم الغد الفتي، واهب الحياة

مطر... مطر... مطر...

سيُعشِبُ العراق بالمطر..

أصيحُ بالخليج: « يا خليج.. يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى »

فيرجع الصدى كأنه النشيج، يا خليج، يا واهب المحار والردى

وينثر الخليجُ من هباته الكثار،

على الرمال، رغوة الأجاجَ والمحار

وما تبقى من عظام بائسٍ غريق

من المهاجرين ظلَّ يشرب الردى،

من لجة الخليج والقرار،

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق،

من زهرة يربُّها الفرات بالندى

واسمع الصدى، يرن في الخليج.

مطر... مطر... مطر...

في كل قطرة من المطر، حمراءُ أو صفراءُ من أجنَّة الزهرْ.

وكل دمعة من الجياع والعراة، وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد

أو حلمةٌ توردت على فم الوليد،

في عالم الغد الفتي، واهب الحياة

ويهطل المطرْ.

المعول الحجري

رنينُ المِعوَلِ الحَجريِّ في المُرتَجِّ من نَبْضي

يدمّرُ في خَيالي صوُرةَ الأرضِ

ويهدِمُ برجَ بابلَ، يقلعُ الأبواب، يخلعُ كلَّ آجُرَّه

ويَحْرِقُ من جنائنها المعلّقةِ الذي فيها

فلا ماءٌ ولا ظلٌّ ولا زهره

وينبذُني طريداً عند كَهفٍ ليسَ تحمي بابَه صَخره

ولا تَدمي سوادَ الليلِ نارٌ فيه يحييني وأحييها.

تعالي يا كواسر يا أسودُ ويا نمورُ ومَزّقي الإنسانْ

إذا أخذتُه رجفةٌ ما يبثُ الليلُ من رُعبِ

فَضُجّي بالزئيرِ وزَلزِلي قَبرَه

دماغي وارثُ الأجيالِ، عابرُ لُجّةِ الأكوان

سيأكل منه داءٌ شلَّ من قدمي وشَدَّ يداً على قَلبي

كلامٌ ذاكَ أصدقُ من نُبوءةِ أي عَرّافِ

تُريهِ مسالكَ الشُهبِ

حِمى الأَسرارِ، تَطلعهُ على المُتربِّصِ الخافي

إذا نطقَ الطَبيبُ فأسكتوا العرّافَ والفَوّالْ

رنينُ المِعولِ الحجريَّ يزحفُ نَحو أَطْرافي

سأعجزُ بعد حينٍ عن كتابة بيت شعرٍ في خَيالي جالْ

فدونَك يا خيالُ مدىً وآفاقٌ وألفُ سماء

وفجِّرَ من نجومِك، من ملايينِ الشُموسِ من الأَضواءْ

وأشعلْ في دمي زلزالْ

لأكتبَ قبلَ موتي أَو جنُوني أو ضمُورِ يدي من الإعياءْ

خوالج كلِّ نَفسي، ذكرياتي كلِّ أَحلْامي

وأوهامي

وأسفحُ نفسي الثّكلى على الورقِ

فيقرؤها شقي بعد أَعوامٍ وأعوامِ

ليعلمَ أن أشقى منهُ عاشَ بهذهِ الدُّنيا

وآلى رُغم وحشِ الدّاءِ والآلامِ والأَرقِ

ورُغمِ الفقَرِ أن يحيا

ويا مرضي، قناع الموتِ أنتَ، وهل ترَى لو أسفرَ الموتُ

أخافُ ؟ ألاّ دعِ التكشيرةَ الصّفراءَ والثُّقبين،

حيثُ امتصتِ العينين

جحافل من جيُوشِ الدُّودِ يجثُمُ حولَها الصّمتُ،

تلوحُ لناظري. ودَعِ الدِّماء تسحٌّ من أَنفي من الثُّقبين

فأينَ أبي وأمي... أَينَ جَدّي.. أينَ آبائي.

لقد كَتَبوا أساميهم على الماءِ

ولستُ براغبٍ حتّى بخطٍّ اسمي على الماءِ

وداعاُ يا صحابي، يا أحبائي

إذا ما شئتموا أن تَذكروني فاذكروني ذاتَ قَمْراءِ

وإلاّ فَهو محْضُ اسمٍ تَبدّدَ بينَ أسماءِ

وداعاً يا أحبائي....

المومس العمياء

اللیلُ یُطبقُ مرّةً أُخرى، فَتشرَبُهُ المَدینَه

والعابرونَ، إلى القَرارةِ... مثلُ أغنیة حَزینَه.

وَتَفتّحَتْ، كأَزاهرِ الدّفْلَى، مَصابیحُ الطّریق،

كَعیونِ "میدوزا"، تحَجّر كلٌّ قلبِ بالضَّغینه،

وكأَنها نذرٌ تبشّرُ أهلَ "بابِل" بالحَریقْ

من أي غابَ جاءَ هذا اللیلُ ؟ منْ أيّ الكُهوفِ

من أي وجرٍ للذئاب ؟

من أي عُشٍ في المقَابرِ دَفّ أسفعَ كالغُراب ؟

"قابيل" أخفِ دمَ الجريمةِ بالأزاهِرِ والشُفوفِ

وبِما تنشاءُ من العُطورِ أو ابتساماتِ النساء

ومن المَتاجرِ والمَقاهي وَهي تَنبضُ بالضّياء

َعمياءُ كالخفَّاشِ في وضحِ النّهارِ، هي المدينة،

والليلُ زادَ لها عماها.

والعابرونْ:

الأَضلعُ المُتقوّساتُ على المخاوفِ والظُّنونْ،

والأعينُ التَعبى تُفتِّشُ عن خيالٍ في سواها

وتعدّ آنية تلألأ في حَوانيتِ الخُمور:

مَوتى تَخاف من النُشور.

قالوا سنهربُ، ثمّ لاذوا بالقبورِ منَ القُبور !

أحفادُ "أوديبَ" الضريرِ ووارثوه المُبصرونْ.

(جوكست) أَرملةٌ كأمسٍ، وبابُ "طيبة" ما يزالْ

يُلقي "أَبو الهول" الرّهيبُ عليه، من رُعبٍ ظِلالْ

والموتُ يلهَثُ في سؤُالْ

باقٍ كما كَان السؤال، وماتَ معناهُ القديمْ

من طولِ ما اهترأَ الجوَابُ على الشِّفاه.

وما الجَوابْ ؟

"أنا" قالَ بعضُ العابرين...

وانسلّتِ الأضواءُ من بابٍ تثَاءبَ كالجَحيمِ

تَطفو علَيهن البَغايا كالفَراشاتِ العطاش

يَبْحثنَ في النّيرانِ عن قَطراتِ ماءِ... عن رَشاش.

لا تنقلنَّ خُطاك فالمبَغى "علَائيٌّ" الأديمِ:

أَبناؤك الصرّعى ترُابٌ تحتَ نَعلِكَ مُستباحُ،

يتضاحكون ويعولونَ.

أو يَهمِسون بما جناهُ أبٌ يبرّؤه الصَّباحُ

مماّ جنَاهُ، ويتبعونَ صدى خطاكَ إلى السكونْ

الحارسُ المكْدودُ يعبرُ، والبَغايا متعبات،

النومُ في أحداقهنَ يَرفُ كالطّيرِ السَّجينِ،

وعلى الشفاهِ أو الجَبينِ

تَترنحُ البسَمَاتُ والأصباغُ ثَكلى، باكيات،

مُتعثراتٌ بالعيونِ وبالخطى والقَهْقَهات،

وكأن عاريةَ الصُدورْ

أوصالُ جُندي قَتيلٍ كللّوها بالزُهور،

وكأنّها دَرجٌ إلى الشّهواتِ، تزحمهُ الثُّغور

حتّى تهدّمَ أو يكادُ. سِوى بَقايا من صُخور.

جِيفٌ تَسَتّرُ بالطلاء، يكادُ يُنكِرُ من رآها

أنَّ الطفولةَ فجّرتْها، ذاتَ يومٍ، بالضّياءْ

كالجدولِ الثّرثارْ - أو أنَّ الصّباحَ رأى خُطاها

في غَيرِ هذا الغَار تَضحكُ للنسائمِ والسّماء،

ويكادُ ينكرُ أنَّ شقاً لاحَ من خَلَلِ الطّلاء

قد كانَ ـ حتّى قبلَ أعوامٍ من الدمِ والخَطيئة ـ

ثغراً يُكَرْكِرُ، أو يُثَرثِرُ بالأقاصيصِ البريئه

لأبٍ يَعودُ بما استَطاعَ من الهَدايا في المَساء:

لأبٍ يقبّلُ وجهَ طِفلتهِ النّديِّ أو الجبين

أو ساعدين كَفرختينِ من الحَمائمِ في النَّقاء.

ما كانَ يعلمُ أن ألفَ فمٍ كبئرٍ دون ماءِ

ستمصُّ من ذاكَ المحيا كلّ ماءٍ للحَياء

حتّى يَجفّ على العظامِ ـ وأنَّ عاراً كالوباء

يَصِمُ الجباهَ فليسَ تُغسَلُ منهُ إلاَّ بالدّماء

سيَحلّ من ذَاك الجبينِ بهِ ويَلحقُ بالبنين ـ

والساعدينِ الأبيضينِ، كما تُنَوِّرُ في السُهولْ

تفاحةٌ عذراءُ، سَوفَ يُطوّقانِ مع السنين

كالحيّتينِ، خُصور آلافِ الرِّجال المُتعبين

الخارجينَ، خُروجَ آدَم، من نَعيمٍ في الحُقول

تفاحةُ الدّمِ والرغيفِ وجُرعتانِ من الكُحول

وَالحيةُ الرّقطَاءُ ظلٌ من سياطِ الظّالمين

أتريدَ مِن هذا الحُطام الآدميّ المُستباحْ

دفءَ الرّبيع وفَرحةَ الحَمْلَ الغَرِيرِ مع الصّباح

ودواءَ ما تلقاهُ من سأمٍ وذُلٍ واكتِداح

المالُ، شيَطانُ المَدينة

وكأنَّ ألحاظَ البغايا.

إبَرٌ تُسلٌّ بِها خُيوطٌ من وشائعَ في الحَنايا

وتظلُ تنسجُ، بينَهن وبينَ حَشدِ العابرينْ،

شيئاً كَبيْتِ العَنكبوتِ يَخضُّه الحِقدُ الدّفين:

حِقدٌ سيعصفُ بالرِّجَالْ

والأخرياتُ، النّائماتُ هُناكَ في كَنَفِ الرِّجال

والسّاهراتُ على المُهودِ وفي بيوتِ الأقربين

حولَ الصّلاءِ بلا اطّراحٍ للثيابِ ولا اغتِسَال

في الزّمهريرِ، ودونَ عدٍّ لليالي والسّنين !

ويمرّ عِملاقٌ يبيعُ الطّيرَ، مِعطفُهُ الطَويل

حيرانُ تَصطفقُ الرّياحُ بجانبيهِ، وقَبضَتْاه

تتراوحانِ: فللرداءِ يدٌ وللعبءِ الثقيلِ

يدٌ، وأعناقُ الطّيورِ مُرَنّحاتٌ من خُطاه

تَدمى كأثداءِ العجائزِ يومَ قَطّعها الغُزاة.

خُطواتُه العُجلَى، وصَرْختُه الطّويلة: "يا طيورْ

هذي الطيُور، فَمن يَقولُ تَعالَ..."

أَفزَعها صَداه

يأتيه من غُرفِ البغايا كاللهاثِ من الصُدور.

ويدٌ تُشِير إليه عن كَثَبٍ، وقائلةٌ تعالْ !

بين التَضاحُكِ والسّعالْ:

عمياءُ تطفئُ مُقلتاها شهوةَ الدّمِ في الرَّجال.

وتحسّستهُ كأنَ باصرةً تَهمٌّ ولا تَدور

في الرّاحتينِ وفي الأناملِ وهي تَعثرُ بالطّيور،

وتَوسلْتهُ: "فدى لعينكَ ـ خَلّنِي. بيدي أَراها ".

ويكادُ يهتكُ ما يُغلفُ ناظريها من عَماها

قلبٌ تحرّقَ في المحَاجِرِ وأشرأبّ يُريدُ نُور !

وتمسّ أجنحةٌ مُرقّطة فتنشرُها يَداها،

وتظلُ تذكرُ ـ وهي تمسُحُهنَّ ـ أَجنحةً سواها

كانتْ تَراها وهي تخفقُ... ملءَ عَينيها تَراها:

سربٌ من البَطِّ المهاجرِ، يستحثّ إلى الجَنوب

أَعناقَه الجذْلى... تكادُ تزيدُ من صَمْتِ الغُروب

صَيحاتَه المُتقطّعاتُ، وتَضمحلُّ على السُّهوب

بين الضّبابِ، ويَهمُس البرديّ بالرَّجعِ الكئيب.

ويَرجُ وشوشةَ السّكونْ

طَلَقَ... فَيصمتُ كلُ شيء... ثمّ يلغطُ في جُنون.

هي بطّةٌ فلمَ انتفضتِ ؟ وما عَساها أن تكونْ ؟

ولعلّ صائدَها أَبوك، فأن يكنْ فَستَشبَعونْ.

وتخفّ راكضةً حيالَ النهرِ كي تلَقى أَباها:

هو خلفَ ذاك التلِ يَحصدُ. سَوفَ يغضبُ إنْ رآها.

مرّ النهارُ ولم تُعنه... وليسَ من عَونٍ سواها

وتظلُ تَرقى التلَّ وهي تَكادُ تكفرُ من أساها.

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العَمى وعلى السّهاد ؟

لا تُمهليها، فالعذابُ بأَنْ تمرّي في اتئّاد

قصّي علَيْها كيفَ ماتَ وقد تضرّجَ بالدماءِ

هُوَ والسّنابلُ والمساءْ .

وعيونُ فلاحينَ ترْتجِفُ المذلّةُ في كوُاها

والغمغماتُ: "رآهُ يَسرُق..."، واختلاجاتُ الشفاه

يَخزين ميتّهَا، فتصرُخُ: "يا إلهي، يا إلهي...

لو أنَّ غيرَ "الشيخِ"، وانكفأتْ تشدُ على القتيل

شَفتينِ تَنتقمانِ منهُ أسىً وحباً والتياعاً

وكأنّ وَسْوسةَ السّنابلِ والجَداولِ والنَخيل

أصداءُ موتى يَهْمِسونَ: "رآه يَسرقُ" في الحقُول

حيثُ البيادرُ تفصدُ الموتى فتزدادُ اتساعا

وتُحِسّ بالدمِ وهوَ ينزفُ من مكانٍ في عماها

كالماءِ من خَشبِ السّفينةِ، والصديدِ من القبور،

وبأدمعٍ من مقلتيها كالنّمالِ على الصخور

أو مثلِ حباتِ الرِّمالِ مُبعثراتٍ في عماها

يَهوينَ منهُ إلى قرارةِ قَلْبِها آها فآها.

ومَنِ الملومُ وتلك أقدارٌ كُتبنَ على الجَبينْ ؟

حتمٌ عليها أنْ تعيشَ بِعِرْضِها، وعلى سواها

من هؤلاءِ البّائساتِ. وشاءَ ربٌّ العالمينْ

ألاَّ يكونَ سِوى أَبيها ـ بينَ آلافِ ـ أباها

وقضى عليه بأن يَجوعْ

والقمحُ ينضُج في الحُقولِ من الصبَّاحِ إلى المساءْ

وبأنْ يلصَّ فيَقتلوه... (وتَشرئبُ إلى السماء

كالمُستَغيثةِ، وهي تَبكي في الظّلامِ بلا دُموع)

واللهُ ـ عزَّ اللهُ ـ شاءْ

أن تقذفَ المدنُ البعيدةُ والبحارُ إلى العراقَ

آلافَ آلافِ الجُنودِ ليَستبيحوا، في زُقاق

دونَ الأزقَّةِ أَجمعينْ

ودونَ آلافِ الصبّايا، بنتَ بائعةِ الرقاقْ:

تلكَ الشقيّةَ، ياسَمينْ.

(ذاك اسمٌ جارتِها الجَديدُ، فلَيتَها كانتْ ترَاها

هل تَستحقُّ اسماً كهذا: ياسمينُ وياسمينْ ؟)

يا ليتَ حَمّالاً تزوجَها يَعودُ مع المَساءْ

بالخُبزِ في يَدهِ اليسارِ وبالمحبّةِ في اليَمين.

لَكنّ بائسةً سِواها حَدثتْها مُنذ حِين

عن بَيتها وعن ابنتيها، وهي تَشهقُ بالبُكاء:

كالغَيمة السَّوداء تُنذِرُ بالمجاعةِ والرّزَايا،

أزرارُه المتألقاتُ على مَغالقِ كلّ باب

مَثلُ الذئابِ الجائعاتِ تَرودُ غاباً بعد غابِ

وخطاهُ مُطرِقةٌ تسمّرُ، في الظّلام، على البغايا

أَبوابَهنّ، إلى الصبَّاحِ ـ فلا أتّجارٌ بالخطايا

إلاّ لِعاهرةٍ تُجازُ بأن تكونَ من البَغايا...

ويَظَلّ يَخفرهن من شبَعٍ، وينثُرُ في الرِّياح

أُغنيّةً تَصفُ السّنابلَ والأَزاهِرَ والصَّبايا،

وتَظلُ تَنتظرُ الصَّباحَ وساعديه مع الصّباح

تصغى - وتَحتضنُ ابنتيها في الظّلامِ - إلى النباح

وإلى الرّياح تئنُّ كالموتى وتُعوِلُ كالسَّبايا

وتُجمِّعُ الأشباحَ من حُفرِ الخَرائبِ والكُهوف

ومن المقابرِ والصَّحارى بالمِئاتِ والألوف....

فتقفُّ من فَزعٍ وتحجْبُ مُقْلتيها بالغِطاء،

ويَعودُ والغبشُ الحزين يرُشّ بالطّل المُضاء

سَعفَ النّخيلِ... يَعودُ من سَهرٍ يئنُ ومن عَياء

- كالغيمةِ اعتصرِتْ قِواها في القِفارِ، وتَرْتجيها

عَبرَ التّلالِ قوى تجوعُ - لكي يَنامَ إلى المساَء:

عيشٌ أشقّ من المنيّةِ، وانتصارٌ كالفَناء

وطوى يعبّ من الدِماءِ وسُمٌّ أَفعى في الدِّماء

وعُيونٌ زَانٍ يَشتهيها، كالجَحيم يشعّ فيها

سخرٌ وشوقٌ واحتقارٌ، لاحقتها كالوباء....

والمالُ يهمسُ أَشتريكِ وأشتَريكِ فيَشتريها

يا لَيتها، إذن انتَهى أَجلٌ بها فطوى أَساها !

" لو أَستطيعُ قتَلتُ نَفسي.. "همسةٌ خنقَتْ صدَاها

أُخرى تُوسوسُ: " والجحيمُ ؟ أتبُصرينَ على لظاها ؟

وإذا اكفهرّ وَضاقَ لحدُك، ثمّ ضاَقَ، إلى القرارِ

حتّى تفجّرِ من أَصابِعكِ الحليبُ رشاشَ نارِ

وتَساءل الملَكانِ: فيمَ قتلتِ نفسَك يا أَثيمَةَ ؟

وتَخطّفاكِ إلى السّعيرِ تُكفّرين عن الجرَيمة.

أفتَصرخينَ: أَبي ! فيَنفضُ راحتيهِ من الغُبارِ

وَيخفُ نَحوكِ وهوَ يهتفُ: قد أتيتُكِ يا سلَيمة ؟ "

حتّى اسمُها فقدتهُ واستَتَرتْ بآخرَ مستعارِ

هي - منذُ أن عَمِيَتْ "صباحُ "...

فأيّ سخرية مَريره !

أين الصّباحُ من الظّلامِ تَعيش فيهِ بلا نهارِ

وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبدونِ نارِ ؟

أو بَعد ذلك تَرْهبينَ لِقاءَ رَبّكِ أو سَعيرَه ؟

القبرُ أهونُ من دُجاكِ دجىً وأرفقُ، يا ضَرِيره.

يا مُستباحةُ كالفرَيسةِ في عَراءٍ، يا أسيره

تتلفّتينَ إلى الدُروبِ ولا سبيلَ إلى الفَرارِ ؟

وتُحِسّ بالأسفِ الكَظيمِ لنفسِها: لم تُسْتَباحْ ؟

ألهِرُّ نامَ على الأَريكة قُربها... لِمَ تُستباح ؟

شَعبانُ أغفى، وَهيَ جائعةٌ تلمّ من الرّياح

أَصداءَ قَهقهةِ السّكارى في الأزقةِ، والنُّباح

وتعدّ وَقعَ خطى هُنا وهناك: ها هو ذا زُبون

هُو ذا يجيء ـ وتشرئبُّ، وكادَ يلْمسُ... ثمّ راح

وتدقّ في أحدِ المَنازلِ ساعةً.. لِمَ تُسْتَباح ؟

الوقتُ آذنَ بانتهاءٍ والزَبائنُ يَرحلونْ.

لِمَ تُسْتَباحُ وتستباح على الطّوى ؟ لِمَ تُسْتَباحْ ؟

كالدّربِ تذرعُه القوافلُ والكلابُ إلى الصَّباحْ ؟

الجوعُ ينخرُ في حَشاها، والسّكارى يَرحلون،

مروا عليها في المساءِ وفي العَشيّةِ يَنسِجُون

حلُماً لها هِي والمَنونَ:

عَصَبَاتُ مُهجتِها سَداهُ وكلُ عوقٍ في العُيون،

والآنَ عادوا ينقُضون -

خيطاً فخيطاً من قَرارةِ قَلْبِها ومن الجِراح -

ما لَيسَ بالحلُم الذي نَسجوه، ما لا يُدركون....

شيئاً هو الحلُمُ الذي نَسجوا وما لا يَعرِفون،

هوَ منهُ أكثرُ: كالحَفيفِ من الخَمائل والرّياحْ،

والشِعرُ من وزنٍ وقافيةٍ ومَعنى، والصّباحْ -

من شمسهِ الوضّاء... وانصرَفوا سُكارى يضحكون !

فلْيرْحلوا. ستَعيشُ، فهيَ من السُعالِ ومن عماها

أقوى، ومن صَخَبِ السكارى.

فامضِ عنها يا أَساها

ستجوعُ عاماً أو يزيدُ، ولا تموتُ، ففي حشَاها

حقدٌ يؤرّثُ من قِواها.

ستعيشُ للثأرِ الرهيبِ

والداء في دمِها وفي فمِها. ستنفث من رِداها

في كُلِّ عرقٍ من عُروقِ رجالِها شَبَحاً من الدّمِ والا

شَبَحاً تخطّفَ مقلتيها أمسِ، من رَجلٍ أتاها

ستردّه هي للرّجال، بأنَهم قتَلوا أباها

وتلقّفوها يعبَثُونَ بِها وما رحموا صباها،

لم يَبْتغوها للزّواجِ لأنَّها امرأةٌ فقَيرة،

واستَدْرجوها بالوعودِ لأنَّها كانتْ غريره،

وتهامسَ المتُقولّون فثارَ أبناءُ العَشيرة

مُتَعطّشين ـ على المفارقِ والدُروبِ ـ إلى دِماها.

وكأنَّ مَوجةَ حِقدِها ورُؤى أَساها.

كانت تقرّبُ من بصيرةِ قَلبِها صوُراً علاها صدَأُ المدينةِ وهي ترَقُدُ في القرارِة من عماها:

كلُ الرّجال ؟ وأهلُ قريتِها ؟ أَليسوا طيّبين ؟

كانوا جياعاً ـ مثلَها هي أو أبيها ـ بائِسين،

همْ مثلُها ـ وهم الرِّجالُ ـ ومثلُ آلافِ البغايا

بالخُبزِ والأَطمارِ يؤتجرون، والجَسدُ المهين

هُوَ كلُ ما يتَملّكونَ، هم الخُطاةُ بلا خَطايا

وهمُ السُكارى بالشُرورِ كَهؤلاءِ العابرينَ

من السّكارى بالخُمورِ كهؤلاءِ الفاجِرين بال فُجور

ليسَ الذينَ تَغصبّوها من سُلالةِ هؤَلاء:

كانوا كآلهةٍ مُقطبّةِ الجِباه من الصُّخور

تمتص منَ فزعِ الضحّايا زَهوَها ومنَ الدِّماء

مُتَطلّعينَ إلى البرايا كالصّواعِقِ من علاء !

وتُحِسُّ، في دَمِها، كآبةً كلّ أَمطارِ الشتّاء

من خَفْقِ أَقدامِ السُكارى، كَالأَسيرِ وراءَ سُور

يُصغي إلى قرعِ الطُبولَ يموتُ في الشّفقِ المُضاء.

هِيَ والبَغايا خَلفَ سورٍ، والسُكارى خَلْفَ سور،

يبحثنَ هنّ عن الرّجالِ، ويَبْحثون عن النساءِ،

دَمِيتْ أصابعهُنّ: تحفْرُ والحجارة لا تلينْ،

والسورُ يمْضَغُهن ثمّ يَقيئُهن رُكامَ طِينْ:

نَصَباً يُخَلّدُ عارَ آدمَ واندحارَ الأَنبياء،

وطُولَ مقبرةٍ تَضُمُّ رفاتَ " هابيلَ " الجَنين !

سورٌ كهذا، حَدّثوها عنهُ في قَصصِ الطُفولَة:

" يأجوجُ " يغرِز فيه، من حنقٍ، أَظافِرهُ الطويلَة

ويعضّ جندلَهُ الأصمَّ، وكفُ " مأجوج " الثَقيله

تهوي، كأعنفِ ما تكونُ، على جلامدِهِ الضّخامْ،

والسّور باقٍ لا يُثَلُّ... وسوفَ يبقى ألفَ عام،

... ألطفلُ شَابَ وَسورُها هي ما يزالُ كما رآه

من قَبلِ يأجوج البرَايا. توأمٌ هُوَ للسَّعير !

لصَّ الحجارةَ من مَنازلَ في السهولِ وفي الجبِالْ

يَتواثبُ الأطفالُ في غرُفاتِها ويُكرْكِرون...

والأمَهاتُ يلَدِن والآباءُ للغدِ يبَسِمون،

لمْ يبقَ من حَجرِ علَيها، فهي رِيحٌ أو خَيال.

وأدارَ من حُطَم البلاطِ رُحىً، وساطَ من البُطون

ما تَرتعيهِ رُحاه من لحمِ الأجنَّةِ والعِظامْ،

وكشاَطئينِ من النُجومِ على خَليجٍ من ظلَام

يتحرّقانِ ولا لِقاءَ ويَخْمدانِ سوى رُكام -

شقّ الرجالُ عن النّساءِ: سُلالتين من الأنَام

تتلاقيانِ مع الظلامِ وَتفصلِانِ مع الشّروق:

لو يَقْطَعون الليلَ بحثاً والنّهارَ - على سِواها

في حُسنِها هيَ ؟ في غَضارةِ ناهديها أو صبِاها

وبِسعرِها هيَ ؟ أيّ شيء غيرَ هذا يَبتغونْ ؟

عَمياءُ أَنتِ وحظُكِ المنْكودُ أَعمى يا سلَيمِه.

... وتلوبُ أغنيةٌ قَديمة

في نَفسِها وصَدىً يُوشوشُ: يا سليمه، سليمه

نامتْ عيونُ الناس. آهِ... فمن لِقَلْبي كَي يُنِمَه ؟

ويلُ الرِجالِ الأَغبياءِ، وويلُها هيَ، من عماها !

لمَ أصبَحوا يتَجنَّبون لِقاءها ؟ أيُضاجِعونَ

عيونَها، فَيخلِّفونها وحْدها إذ يَعلَمونَ

بأنّها عَمياءُ ؟ فيمَ يُكابِرون َومُقلتاها

ما كانتا فَخذينِ أو رِدْفينِ ؟

وهي بهؤلاءْ

أَدْرى، وتَعرِفُ أيّ شيءٍ في البَغايا يَشتَهونْ.

بالأَمْسِ، إذ كانتْ بَصِيرة،

كانَ الزّبائنُ بالمئاتِ، ولم يكونوا يَقْنعون

بنظرةٍ قَمراء تَغصبِهُا من الرّوحِ الكَسيرة

لِتَرُشّ أفئدة الرِجالِ بِها، وكانوا يلْهثون

في وَجْهِها المأجورِ، أبخرةَ الخُمورِ، ويَصرْخَون

كالرَّعدِ في ليلِ الشتاءْ:

" إن كُنتِ لا تتَجرّدين كما أتيتِ إلى الوجود،

إن كُنتِ لا تتَجرّدين... فلا نُقود ! "

ولعلّ غِيرةَ " ياسمين " وحقدها سببُ البلاءْ:

فهي التي تضعُ الطِلاءَ لَها وتمسحُ بالذُرور

وجهاً تَطفأتِ النّواظرُ فيهِ...

ـ " كيفَ هوَ الطِّلاءْ ؟

وكيفَ أَبدو؟ "

ـ " وردةٌ..قمرٌ.. ضِياء ! "

زُورٌ.. وكلّ الخَلْقِ زُورْ،

والكونُ مَينٌ وافتِراءْ.

لو تُبصرُ المرآةَ ـ لمحةَ مقلتيها ـ لو تَراها

ـ لمحَ النيازكِ ـ ثمّ تَغرقُ من جديدِ في عَماها !

برقٌ ويُطفأُ... ثمّ تُحكِمِ فِرقَها بيدٍ، وفاها

بيدٍ، وتَرسمُ بالطِّلاءِ على الشِّفاهِ لها شِفاها.

شَفتاكِ عاريةٌ وخدُّكِ ليس خدك يا سليمة

ماذا تخلف منك فيك سوى الجراحات القديمة

وتَضمّ زهرةَ قلبِها العَطشى على ذِكرى أليمة:

تلك المُعابِثة اللَعوب... كأَنَها امراةٌ سِواها !

كالجَدولينِ تَخوضُ ماءهما الكواكبُ ـ مُقلتاها،

والشّعر يلهثُ بالرَّغائبِ والطَّراوةِ والعَبيرْ

وبمثلِ أضواءِ الطريقِ نَعِسنَ في ليلٍ مَطير،

تقتاتُ بالعَسلِ النقيّ، وترتدي كَسلَ الحرير.

ليتَ النّجوم تخرُّ كالفَّحمِ المُطفأً، والسّماءَ

ركامُ قارٍ أو رمادٌ، والعَواصِفُ والسيولْ

تدكّ راسيةَ الجِبالِ ولا تَخلّفُ في المَدينةِ من بِناء !

أن يعَجَزَ الإنسانُ عن أن يستجيرَ من الشَّقاء

حتّى بوَهمٍ أو برُؤيا، أن يَعيشَ بلا رَجاء...

أو ليسَ ذاك هو الجَحيمُ ؟ أليسَ عَدْلاً أن يزَولْ ؟

شبَعَ الذُّباب من القُمامةِ في المَدينة، والخيُول

سرُّحنَ من عَرباتِهن إلى الحظائرِ والحقُول،

والنّاسُ ناموا ـ وهي ترتقبُ الزّناةَ بِلا عَشاء.

هذا الذي عَرضَتْه كالسِّلعِ القَديمة: كالحِذاء،

أو كالجِرار الباليات، كاُسطوَانات الغنِاء...

هذا الذي يأَبى عليَها مُشترٍ أن يَشتريهِ

قد كان عَرْضا ـ يومَ كانَ ـ ككلِّ أَعراضِ النِساءْ !

كان الفَضاءُ يضيقُ عن سِعةٍ، وتُرتخَصُ الدّماء

إن رنّقَ النّظرَ الأثيمَ عليهِ. كانَ هُوَ الإباء

والعزةَ القعساءُ والشّرَفَ الرّفيعَ. فَشاهِديهِ

يا أعينَ الظّلماءَ، وامْتلأي بغَيظِكِ وارجميهِ

بشَواظِ عَارِكِ واحتقارِكِ يا عُيونَ الأَغبياءْ !

ـ " لا تَتركوني يا سكارى

للمَوتِ جوعاً، بعدَ موتي ـ ميتةَ الأَحياءِ ـ عارا.

لا تقلقوا... فَعمايَ ليسَ مَهابةً ليَ أو وَقارا.

ما زلتُ أَعرفُ كَيفَ أُرعِشُ ضِحكتي خَلَل الرّداء

كالقمحِ لوُنُكِ يا ابنةَ العَربِ،

كالفَجرِ بينَ عَرائشِ العِنَبِ

أو كالفُراتِ، على ملامحِهِ

دعةُ الثرى وضراوةُ الذهبِ.

لا تَتركوني.. فالضُّحى نَسبي:

من فاتحٍ، ومجاهدٍ، ونَبي !

عَربيةٌ أنا: أُمتي دمُها

خَيرُ الدِّماءِ... كما يقولُ أبي.

في مَوضعِ الأَرجاسِ من جَسَدي، وفي الثّديِ المُذالْ.

تجري دماءُ الفاتحينَ. فلوِّثوها، يا رِجالْ

أوّاهُ مِن جِنس الرّجالِ.. فأَمسِ عاثَ بِها الجنُود

الزّاحِفونَ من البّحارِ كما يَفورُ قَطيعُ دود

يا ليتَ للموتى عُيوناً من هَباءٍ في الهَواءِ

تَرى شَقائي

فَيرى أبي دمَهَ الصرّيحَ يعبُّ أوشالَ الدِّماء

كالوَحلِ في المُستنقعاتِ. فلا يردّ الخاطبينَ

أبٌ سِواه:

إلاَّ العُفاةَ المُفلسينْ.

أنا زَهرةُ المستنقعاتِ، أعبُّ من وَحْلٍ وطينْ

وأشعّ لونَ ضُحىً... "

وذكّرها بجَعْجَعةِ السّنِين

سُعالُها. ذهبَ الشّباب !!

ذَهَبَ الشّبابُ !! فشيّعيهِ مع السِّنين الأَربعينْ

ومع الرِجال العَابرين حِيال بابِك هازِئين.

وأَتى المَشِيبُ يلفُّ رُوحكِ بالكآبةِ والضَّبابْ،

فاستقبليهِ على الرّصيف بلا طَعامٍ أو ثِياب،

يا ليتَك المِصباحُ يخفقُ ضوؤهُ القَلَقُ الحَزين

في لَيْلِ مخدعِك الطّويلِ، وليتَ أنَّكِ تُحرِقين

دماً يجِفّ فتَنَشْتَرينَ

سِواهُ: كالمِصْباحِ والزّيتِ الذي تَسْتأْجِرين.

عشرونَ عاماً قد مَضين، وشبتِ أنتِ، وما يَزالُ

يُذَردِرُ الأضواءَ في مُقَلِ الرّجال.

لو كنتِ تدّخرين أَجَرَ سناهُ ذاكَ على السِّنين

أثريتِ...

ها هُو ذا يُضيء فأيَّ شيءٍ تملكينْ ؟

ويحَ العراق ! أكانَ عَدْلاً فيه أنَّكِ تَدْفعينَ

سُهادَ مُقلتِك الضَّريره

ثمناً لملءِ يديكِ زيتاً من منابعِه الغَزيره ؟

كيْ يُثمرَ المِصباحُ بالنورِ الذي لا تُبصرين ؟

عشرونَ عاماً قد مَضينَ، وأنتِ غَرثى تأْكلينَ

بنيكِ من سَغَبٍ، وظَمأى تَشربينَ

حليبَ ثديكِ وهو ينزِفُ من خياشِيم الجنينْ !

وكزارعٍ لَهمَ البُذورَ

وراَحَ يقتلعُ الجذُورَ

من جُوعه، وأتى الربيعُ فما تفتّحتِ الزُّهورُ

ولا تنفّستِ السّنابلُ فيه...

ليسَ سوى الصخُورْ

سوى الرِّمالِ، سِوى الفلَاة ـ

خُنتِ الحياةَ بغيرِ عِلمكِ، في اكْتداحِكِ لِلحياة !

كم ردّ موتُكِ عنك موتَ بنيك. إِنكِ تَقطعين

حبلَ الحياة لتنقُضيهِ وتضفري حَبلاً سِواه،

حبلاً به تتعلّقينَ على الحياةِ تُضاجعينَ

ولا ثِمارَ سِوى الدّموعِ، وتأَكُلينَ،

وتَسْهرينَ ولا عُيونَ، وتَصرخينَ ولا شِفاه،

وغداً. وأمسِ... وألفُ أمسِ ـ كانمّا مَسَحَ الزَّمان

حُدودَ ما لكَ فيهِ من ماضٍ وآتٍ

ثمَّ دارَ، فلا حُدودْ

ما بينَ ليلكِ والنّهارِ، وليسَ، ثمّ، سِوى الوجُود...

سوى الظلامِ، ووطءِ أجسادِ الزَّبائنِ، والنُقود،

ولا زمانَ، سوى الأريكةِ والسَّريرِ، ولا مكانْ !

لم تحْسبين لياليَ السأَمِ المُسهَّدةَ الرَتيبه ؟

ما العُمرُ ؟ ما الأيّامُ ؟ عندَكِ، ما الشُهورُ ؟ وما السِّنين ؟

ماتت " رجاءُ " فلا رَجاءَ. ثكلتِ زَهرتَكِ الحَبيبه !

بالأمْسِ كُنتِ إذا حَسبتِ فعُمْرُها هي تَحسبين.

كانت عزاءكَ في المُصيبة،

وربيعُ قفرتِكِ الجَديبة.

كانتْ نقاءك في الفُجورِ، ونَسمةً لكِ في الهَجير،

وخلاصَكِ الموعودَ، والغَبَشَ الإلهيّ الكَبير !

ما كان حكمةَ أن تَجيءَ إلى الوجُود وأن تموت ؟

ألنتشربَ اللَّبنَ المرنّقَ بالخَطيئةِ واللُّعابْ:

أو شالَ ما تركتْه في ثَدييكِ أشداقُ الذئِابِ ؟

مات الضَجيجُ. وأنتِ، بعدُ، على انتظارِكِ للزُّناة،

تتَنَصتّينَ، فتسمعينَ

رنينَ أقفالِ الحديدِ يموتُ، في سأمٍ، صدَاه:

البابُ أُوصِدَ.

ذاكَ ليلٌ مرَّ...

فانتظري سِواه.

شناشيل ابنة الجلبي

وأذكرُ من شتاءِ القَريةِ النضَّاحِ فيهِ النّورُ

من خَلَلِ السَّحابِ كأنَّهُ النّغَمُ

تسرّبَ من ثُقوب المعزفِ ـ ارتعشتْ له الظُلَمُ

وقد غنّى ـ صبَاحاً قَبْلَ... فيمَ أعدُّ ؟ طفلاً كُنتُ أَبتسمُ

لليلي أو نَهاري أثقلتْ أغصانَهُ النَشوى عُيونُ الحورْ.

وكنا ـ جدّنا الهدّارُ يضحكُ أو يغنِّي في ظِلالِ الجَوسقِ

القَصَبِ

وفلّاحيهِ يَنتظرونَ:

" غيثَكَ يا إلهِ "

وإخوتي في غَابةِ اللعبِ

يَصيدونَ الأرانبَ والفراش، و(أحمدَ) الناطور -

نحدّقُ في ظِلالِ الجَوسق السَّمراءِ في النَّهْرِ

ونَرفع للسَّحابِ عُيونَنا: سيسيلُ بالمطرِ.

وأَرعدتِ السّماء فرنَّ قاعُ النَّهرِ وارتعشَتْ ذُرى السَّعَفِ

وأشعلَهُنّ ومضُ البرْقِ أزرقَ ثمّ أخضر ثمّ تنطفئُ

وفَتّحتِ السماءُ لغيثها المدرار باباً بعدَ بابٍ

عادَ منهُ النهرُ يَضحكُ وهو ممتلئ

تُكلّله الفَقَائعُ، عادَ أخضرَ، عادَ أسمرَ، غَص بالأنغامِ واللّهفِ

وتحتَ النّخلِ حيثُ تظلّ تُمطرُ كلّ ما سعْفَه

تراقصت الفَقَائعُ وهي تُفْجَرُ - إنّه الرُّطَبُ

تساقطَ في يدِ العذراء وهي تهزُّ في لَهفه

بجذعِ النَّخلةَ الفرعاء (تاجِ وليدك الأنوارُ لا الذّهب،

سيصلَبُ منهُ حبَّ الآخرينَ، سيُبرئُ الأعمَى

ويبعثُ من قَرار القبرِ ميْتاً هدّه التعبُ

من السّفرِ الطويلِ إلى ظلامِ الموتِ، يكسو عَظْمَهُ اللَحْما

ويوقدُ قلبَه الثلجيَّ فهوَ بحبِّهِ يَثِبُ !)

وأَبرقَتِ السّماءُ...فلاحَ، حيثُ تعرّجَ النَّهرُ،

وطافَ معلّقاً من دونِ أسّ يلثمُ الماءَ

شناشيلُ ابنةُ الجلبيِّ نَوّرَ حولَه الزّهَرُ

(عقودُ ندى من اللبلابِ تسطعُ منهُ بيضاءا)

وآسيةُ الجَميلةُ كحّلَ الأَحداقَ منها الوجدُ والسَّهرُ.

يا مطراً يا حلبي

عَبّرْ بناتِ الجلَبي

يا مطراً يا شاشا

عبّر بَناتِ الباشا

يا مطرَاً من ذَهبِ

تقطّعتِ الدُروبُ مقصٌّ هذا الهاطلِ المِدرارِ

قَطَّعها وورِاها،

وطّوقتِ المَعابرُ من جُذوعِ النَّخيلِ في الأمطارْ

كغرقى من سفينةِ سِندباد، كقصّةٍ خضراءَ أرجأها وخلاَّها

إلى الغدِ (أحمدٌ) الناطورُ وهو يَديرُ في الغرُفه

كؤوسَ الشاّي،

يلمسُ بندقيّتهُ ويسعلُ ثمّ يعبرُ طرفُهُ الشُّرفة

ويَخْتَرِقُ الظّلامَ.

وصاحَ "يا جدّي" أخي الثَّرثارْ:

"أَنمكث في ظلامِ الجوسقِ المبتلِّ ننتظرُ ؟

متى يتوقفُ المطَرُ ؟ "

وأرعدتِ السَّماءُ، فطارَ منها ثمّةَ انفجرا

شناشيلُ ابنةُ الجلبيّ...

ثمّ تلوحُ في الأفُقِ

ذُرى قوسِ السَّحاب. وحيثُ كَانَ يسارقُ النَّظرا

شناشيلُ الجميلةُ لا تُصيب العينَ إلاَّ حمرةَ الشَّفقِ.

ثلاثونَ انقضتْ، وكبرتُ: كم حُبٍّ وكم وجدِ

توهَّجَ في فؤادي !

غيرَ أني كُلّما صفقَتْ يدا الرَّعدِ

مَدَدْتُ الطّرفَ ارقبُ: ربما ائتلقَ الشّناشيلُ

فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةَ إلى وعدي !

ولم أرَها. هواءٌ كلّ أشواقي، أباطيلُ

ونبتٌ دُونما ثَمرٌ ولا وردِ !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

مصادر ومراجع الكتاب

الكتب:

- ديوان بدر شاكر السيَّاب (الأعمال الكاملة)، دار العودة - بيروت، ط ١٩٨٩.
- بدر شاكر السيَّاب حياته وشعره، نبيلة الرزاز اللجمي، منشورات مكتبة أطلس - دمشق ط ١٩٦٨.
- بدر شاكر السيَّاب والمذاهب الشعرية المعاصرة، د. محمد التوتنجي، دار الأنوار - بيروت ط ١٩٦٨.
- بدر شاكر السيَّاب وإيديت سيتويل، د.نذير العظمة دار علاء الدين - دمشق ط ٢٠٠٤
- بدر شاكر السيَّاب شاعر الأناشيد والمراثي، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني بيروت ط ١٩٨٠.
- بدر شاكر السيَّاب دراسة في حياته وشعره، د. إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت طبعة ١٩٦٩.
- بدر شاكر السيَّاب حياته وشعره، عيسى بلاطه، دار النهار - بيروت ط ١٩٧١.
- من أعلام الفكر العربي والعالمي في القرن العشرين، سليمان سعد الدين تقديم ومراجعة هاني الخير، دمشق ط١٩٩١.
- الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، د.ميشال خليل جحا، دار العودة - بيروت ط ١٩٩٤.

المجلات والدوريات:

- المدى العدد (٩) ١٩٩٥/٣/١.
- كتاب في جريدة: النهر والموت بدر شاكر السيَّاب (مختارات).
- العربي العدد /٣٧٢/ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٩.
- الهلال أبريل (نيسان) ١٩٧٢.
- سيدتي العدد (١٠٨٩) ٢٠٠٢/١/١٩ م.

الفهرس

إضاءة ـ بدر شاكر السيّاب... محطات حياتية ٧
بدر شاكر السيّاب_ثورة الشعر.... ومرارة الموت ١٥
خلاصة عامة ٢٥
بدر شاكر السيّاب ومسيرته الشعرية ٢٧
حوار صريح مع الابن الوحيد للشاعر بدر شاكر السيّاب ٣١
بدر شاكر السيّاب شهادات أدبية. . . . وآراء ذوقية ٣٧
ابن تاريخ الشعر العربي، ومُحوِّل مجراه ٣٩
بدر شاكر السيّاب.. انطباعات رفيق ٤٣
التجديدات الحداثية في شعر السيّاب ٤٩
بدر شاكر السيّاب مختارات شعرية ٥٧
أقداح وأحلام ٥٩
رئة تتمزق. ٦٩
عبير ٧٥
في السُوق القديم ٧٩
غريب على الخليج ٨٩
في المغرب العربي ٩٩
المبغى ١١١

إلى العراق الثائر ١١٧
ربيع الجزائر ١٢١
شباك وفيقه ١٢٧
عرس في القرية. ١٣٣
النهر والموت. ١٣٩
المسيح بعد الصلب. ١٤٥
جيكور أمي ١٥٣
أنشودة المطر ١٥٧
المعول الحجري ١٦٥
المومس العمياء ١٦٩
شناشيل ابنة الجلبي ٢٠١



